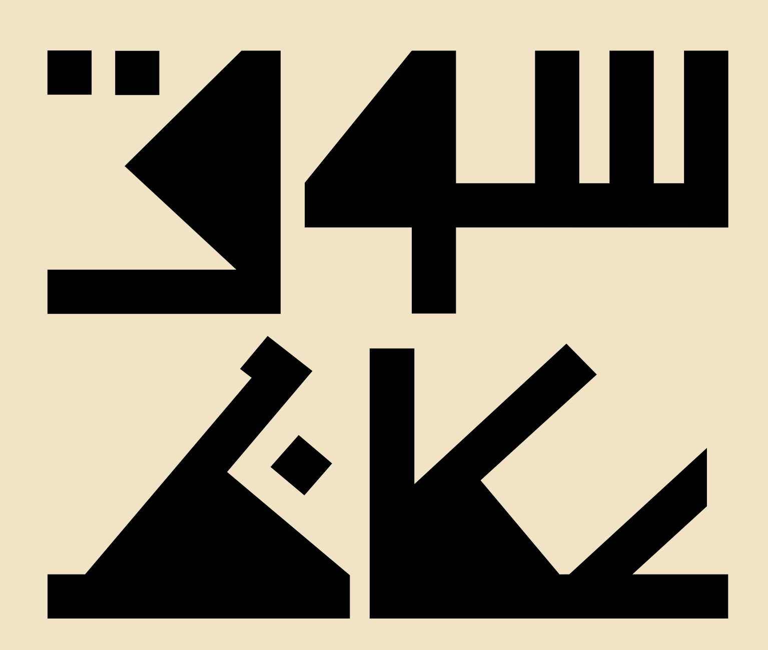
عنقاء الجزيرة العربية



© المحترف السعودي، ١٤٣١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
سحاب، فيكتور
سوق عكاظ: عنقاء الجزيرة العربية. / فيكتور سحاب-
جدة، ١٤٣١ هـ
١٩٢ ص، ٢١ x ٢٢,٥ سم

سوق عكاظ: عنقاء الجزيرة العربية

للمعلومات الرجاء الاتصال بدار المحترف السعودي للنشر والتوزيع
على العنوان التالي:
المحترف السعودي، المركز السعودي للأعمال
طريق المدينة، 12950 جدة 21483
المملكة العربية السعودية
ت: 1555 651 2 966 00
ف: 9939 651 2 966 00

info@mohtarafbooks.com
www.mohtaraf.com
www.mohtarafbooks.com

حرف عكاظ: كميل حوا
التنضيد: Souk Okaz Bold
Helvetica Neue LT Arabic Roman, Bold
Axt Marwan Light

تصميم المحترف السعودي:
يارا خوري

طبع في مطابع السروات، جدة، المملكة العربية السعودية
الطبعة الأولى في 2011

المادة العلمية والإشراف العام: **امانة سوق عكاظ**





دار المحترف السعودي للنشر والتوزيع

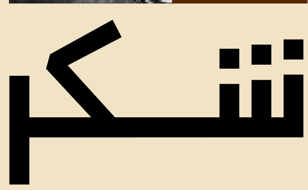


هــذا الكتاب تعريف بســوق عُكاظ، التي أحياها العهد الســعودي الميمون، برعاية خادم الحرمين الشــريفين الملك عبد الله بن عبد العزيــز يحفظــه الله، وافتتحهــا نيابة عنه صاحب الســمو الملكي الأمير خالد الفيصل، أمير منطقة مكة المكرّمة، سنة ١٤٢٨هـ.

ويلخص الكتاب قصة السوق قديماً، منذ أن نشأت قبل الإسلام، حتى توقفها سنة ١٢٩ للهجرة، وقصتها حديثاً بعد أن أعيد اكتشاف وتحديد موقعها الجغرافي التاريخي في العهد السعودي، حيث تم إحياؤها بعد حوالي ١٣٠٠ سنة، وعادت إلى مجدها وسابق عهدها.

وقد وفرت أمانة ســوق عــكاظ المادة العلمية للكتاب وأشــرفت علــى العمل الــذي تولت شــركة المحترَف الســعودي إعداده في ضوء الكتب والدراسات التي تناولت هذا الموضوع.



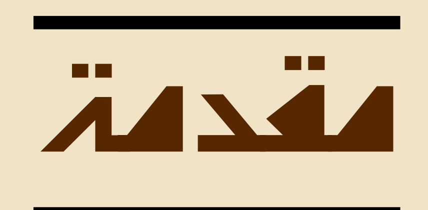


*مـن الكلمة التـي ألقاها سـمو الأمير خالد الفيصـل للترحيـب بضيوف سـوق عكاظ ـ الدورة الرابعة ٢٠١٠م

عكاظ الماضي ..عكاظ المستقبل*

سوق عكاظ سوقاً ثقافياً وتجارياً وفكرياً كذلك. الآن يعود سوق عـكاظ ولكن لا يجب أن يكون فقط لمحـاكاة الماضي. وانما لا بـد أن نطرح فيه النظر إلى المسـتقبل ومحاكاة القادم. سـوق عكاظ، في الجاهلية وفي صدر الإسـلام كان يقدم آنية اللحظة وآنيـة الفكر وآنية الثقافة وآنية التجـارة. نحن يجب أن نعيد هذا المفهوم ونضيف إليه أن يقدم لنا آمالنا المستقبلية.

خالد الفيصل


مقدمة

اشـتُهرت سـوق عُـكاظ، بأنهـا ملتقـى أدبي يتبـارى فيه الشـعراء، فصار كل اجتماع على الشـعر العربي، يسـمَّى عُكاظاً.

لكن عُكاظاً كانت سوقاً للبيع والشراء، وهذه شهرتها الثانية بعـد ملتقى الشـعر. غير أن أثرها لم يبـقَ في ذاكرة الناس في المرتبة التي بقيت للشعر وعلاقته بعُكاظ.

وأقـل من ذلك ما علق في الذاكرة عـن حروب الفِجار التي كانت سوق عُكاظ ميداناً لها. فالذين يذكرون هذه الحروب، ويرهنـون ذكراهـا بالسـوق قليـل. وأقل القليـل من يرى حقيقة البعد الاسـتراتيجي الذي أشـعل هذه الحروب، في الصراع بين قبائل العرب، وبين بيزنطة والساسـانيين قبل الإسـلام، من أجل الاسـتيلاء على خطوط التجارة الدولية التي سيّرتها قريش، في مشروعها العربي الخالص.

نعـم، لم تكن عُـكاظ تعني كل هذا فقط، بـل كانت فوق كل مـا سـبق ملتقى العـرب الذي توحّدت فيـه اللهجات، وائتلفت القلوب مع المصالح، وعُقدت العهود والأحلاف.



سـوق عُكاظ ملتقى العرب، لا يلتقون فيها جسـداً ومالاً وتجـارةً فقط، بل روحـاً وأدباً ولغةً، وتوحداً وعيشاً واجتماعاً.
وعُـكاظ اليـوم، حاجة للعرب والمسـلمين. وليس إحياؤها مهرجان شعر وحسب، لكنها رؤية وحلم أخذ يتحقق. والمسار طويل.

*　　　　*　　　　*

حيث يحتشد الكلام، تعوّد الناس الاختصار.

في الأزمنة القديمة قالوا: في برج بابل، ويقع جنوب بغداد، كثر الــكلام وتعدّدت اللغات، فصار الاســم المختصَــر عنواناً لزحمة الكلمات بكل لغة ولســان، من دون أن تكون لهذه الزحمة فائدة معلومة أو وظيفة مجدية في الاتصال بين الناس.

لقد احتشــد الكلام مرة عند العرب، وازدحم المتكلمون، فسمَّوا المــكان: ســوق عُــكاظ، لكنه كان أجمــل الــكلام وأبلغه. هناك وُلدت المعلَّقات، أخلد ما في الشعر الذي كتبه بشر.

عُكاظ إذن مختلفة.

كانت بابل عنواناً للغو واللغط وتبلبل الحديث، ذلك أن الأسطورة القديمة تروي أن الناس في البرج تكلموا لغات كثيرة، فلم يفهم بعضهــم بعضاً، وكانت بلبلة. وحين نقــول اليوم: اختلط الحابل بالنابــل، للدلالة علــى الفوضــى العارمة والضياع فــي الزحام، فالرمــز الأقدم لهذه الحال هي بابل، وإن كان فيها رمز آخر، لكنه جميل، وهو الحدائق المعلقة.

عُكاظ كانت شيئاً آخر. كانت ملتقى للتعارف بين القبائل، وتبادل الســلع والمنافع، واختبار الشــعراء منهم، في أول مهرجان شعر فــي تاريخ البشــر. وليس غريباً أن تُولَد هناك المعلقات الســبع التي عُلِّقت على أســتار الكعبــة، لتكون كنزاً لا يضاهَى من كنوز

البشـرية، لا فـي سـبقها التاريخي فقط، بل في خلـود معانيها وسمو أدائها الفني الرفيع. وليس غريباً إذن أن يقول لُوِي أراجون، وهو أحد أكبر شـعراء الغرب في القرن الميلادي العشرين: «لعل أعظم ما كتب البشر من شعر، الشعر العربي الجاهلي». لقد وُلد أرفع هذا الشعر في عُكاظ.

وشغلت سوق عُكاظ الناس ما زاد على ١٥٠٠ سنة، ولا تزال. هذا الكتاب اسـتعراض سـريع لتاريخ هذا الموقـع الفريد، الذي شهد مشـاهد، وروى تواريخ، واحتضن أحد أسمى فنون البشر: الشـعر. وهو يروي شيئاً من قصة سوق عُكاظ، وكيف أسهمت فـي توحيـد لهجـات قبائـل العـرب قبيل نـزول القـرآن الكريم بالفصحى القرشية، وما كتبه بعض القدامى والمعاصرين فيها، ويختـار أجمل الشـعر الذي قالـه القدماء فيها والذي اسـتوحاه شعراؤنا المعاصرون من هذه السوق الفريدة.

محتويات

مقدمة

الفصل الأول
عُكاظ في التاريخ والتجارة
١٢

الفصل الثاني
عُكاظ المرجل اللغوي الكبير
٢٦

الفصل الثالث
الشعر في عُكاظ: المعلقات وأصحابها
٤٠

الفصل الرابع
عُكاظ في الشعر
٦٢

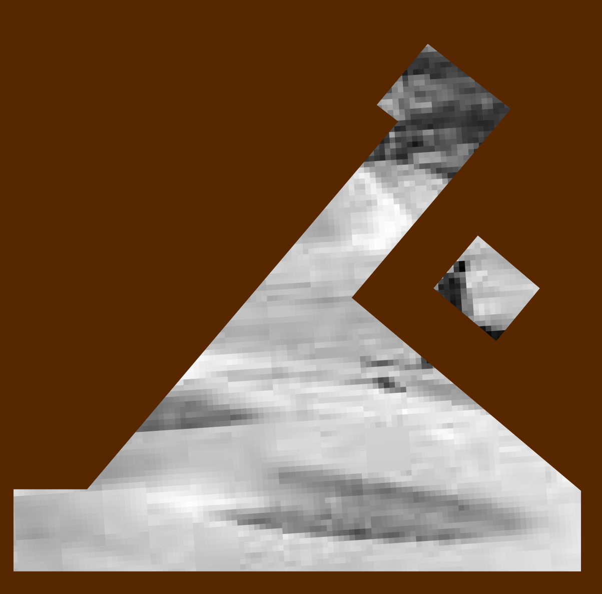
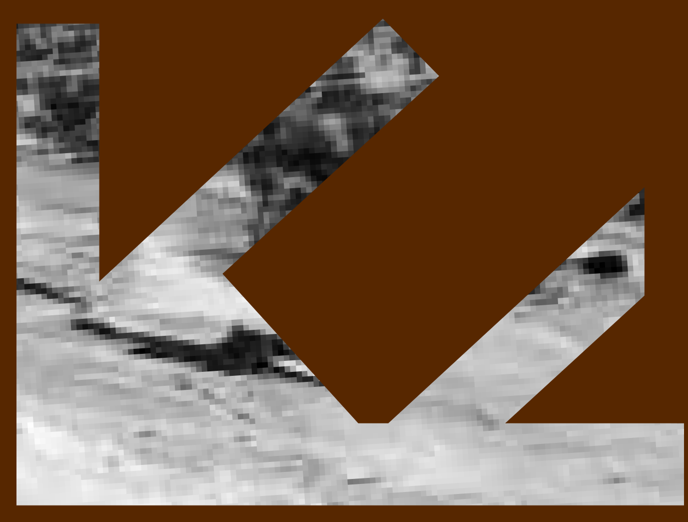
الفصل الخامس
زيارة سوق عُكاظ
٧٦

الفصل السادس
كتبوا عن عُكاظ
١٠٢

الفصل السابع
عنقاء الجزيرة العربية
تُبعث من رمادها
١١٨

الخاتمة
١٢١

الفصل الأول

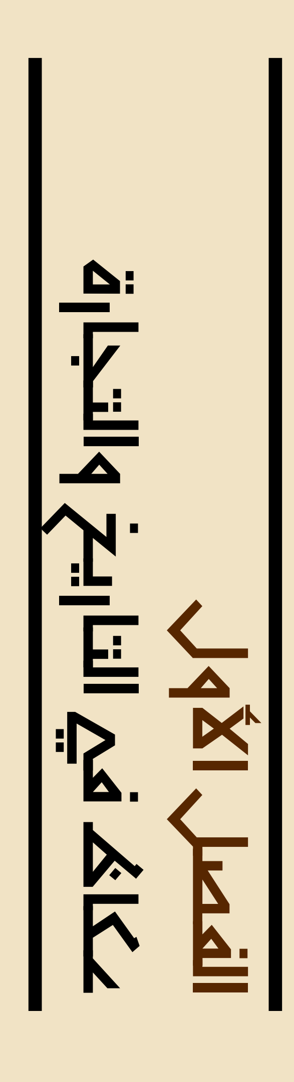



عكاظ

في التاريخ والتجارة






الفصل الأول
عكاظ في التاريخ والتجارة

كانـت عُـكاظ كبـرى أسـواق العرب فـي الجاهليـة وفجر الإسلام، وظلت تقوم كل عام حتى سنة ١٢٩ بعد الهجرة، حين دمرتها فتنة الحرورية. وكانت تعد مع سـوقي المِجنّة وذي المجـاز، أسـواقاً لمكة وقريش، وهي أقرب أسـواق القبائـل العربية إليها. فهي تقع إلى الجنوب الشـرقي من مكة المكرمة بين نخلة والطائف. وكانت الأسـواق الثلاث تقام في الأشهر الحرم، وسوق عُكاظ في ذي القعدة قبيل بدء موسم الحج.
كان موقع السـوق في ديار هـوازن، التي كان منها حلفاء لمملكـة الحيـرة في جنوب العـراق، ومنهم مـن كان من حلفاء قريش.

عُكاظ المعنى والمكان والزمان

تقـول معاجـم اللغة: عكظه أي حبسـه وعركه ودلكه وقهـره، ورد عليه فخره وصرفه ومطلـه. وعكظ به افتخر، وتعكـظ القوم اجتمعوا وازدحمـوا. وتعاكظ القوم تفاخروا وتعاركوا وتجادلوا.

بطبيعـة الحال، أخذ الإخباريون العرب يسـتمدون من

هذه المعاني اللغوية سبباً لتسمية السوق. وكان أقرب ما يشـير إلى وظيفة هذه السوق، أنها كانت محلاً يقول فيه الشـعراء شـعر الفخر بقبائلهم، أو تزدحم فيه جموع غفيرة في موعد مضروب للبيع والشـراء. ويـرى ياقوت الحموي الجغرافـي العربـي الشـهير، أن العارفيـن لـم يتفقوا على سبب التسمية، فظلت موضع تكهن وتقدير.

وإذا اعتمدنـا قول الجغرافيين العـرب ومن كتبوا في موضوع سـوق عكاظ فإن السـوق تقع على مسافة ثلاثة أيـام مـن مكة المكرمـة، ناحيـة الجنوب الشـرقي، وعلى مسـافة يوم مـن الطائف، ناحية الشـمال الشـرقي. وإذا رسـمنا دائرتين، واحدة مركزها مكة المكرمة وشعاعها ١٢٠ كيلومتراً (مسـير اليوم يقرب في الإجمال من ٤٠ كيلومتراً) والثانيـة مركزهـا الطائف وشـعاعها ٤٠ كيلومتـراً، يصبح تعيين مكان السوق دقيقاً نسبياً.

فالسوق كانت تقام في مكان فسيح جداً، يتيح تنقلها من عام إلى آخر في سهل معروف موقعه. وكانت مساحة السوق تتسـع حيناً وتضمر حيناً آخر في داخل هذا السهل. وقـد نقل ياقـوت عن الأصمعي والواقـدي، أن نخيلا كان في المكان، المسمى الأثيداء.

وفيهـا نشـبت حـروب الفِجـار، بيـن ٥٨٥ و٥٩٠م، فبدأت حين كان النبي محمد صلى الله عليه وسـلم، في

موقع سوق عكاظ

Mafruq

Sufah

Judaira

At Taif

Taif

At Ta'if

الخامســة عشرة من العمر قبل البعثة النبوية. وكان سبب هــذه الحروب، محاولة الحيرة الســيطرة علــى خط التجارة بيــن اليمن والعراق، وإقصاء قريش عن هذه التجارة. وقد انتصر القرشــيون وحلفاؤهم في تلك الحروب، واحتفظوا بخط تجارتهم الدولية، التي سارت بالقوافل من اليمن إلى بلاد الشــام، وفق رحلة الشــتاء والصيف التي ذكرها الله عــز وجــل في كتابه العزيز، في ســورة قريش، إذ قال، جَلّ من قائل: (لإِيلافِ قريشٍ* إيلافِهم رحلةَ الشتاءِ والصّيفِ* فليعبــدوا ربّ هذا البيتً* الذي أطعمهُم من جوعٍ وآمنَهم مــن خــوف).

وقد شهدت السوق تجارة بيع وشراء وعقد صفقات، بيــن مختلف القبائل. لكنها اشــتهرت كذلــك بالتباري في الشعر، أمام حكّام يقرّون القصيدة الفائزة. وقد عُلّقت سبع من أفضل القصائد الفائزة على أســتار الكعبة المشــرفة، فسُميت المعلقات.

لقد تركت لنا روايات الإخباريين العرب أوفر المعلومات عن الســوق، إذ كانت محلاً لاختبار حنكة قريش، في قيادة مشروع التجارة الذي جمعت له قبائل العرب حول قوافلها.

كانت قريش تســيطر على عدد كبير من الأسواق في شــبه الجزيــرة العربية، في نظام أحلاف واســع، ضمن لها تســيير قوافلها بســلام، في الأشــهر الحرم، وفــي غيرها

كذلك. وكان نظام الإيلاف يخيّر القبيلة، أن تتقاضى رسوم مرور لقاء حماية قافلة القرشيين، أو أن تسيّر إبلها مع مكة فــي تجارتها. وكانت فائدة للقبائل في الحالين، اســتحقت أن تلتف هذه القبائل العربية حول المشروع التجاري الكبير، بعدما كانت تتصارع وتتغازى.

ســيطرت مكة على التجارة عبر دومة الجندل (الجوف) فــي شــمال المملكة، لأنهــا عقدة المواصــلات بين مكة والحيــرة مــن جهة، وبيــن الخليج وبصرى الشــام من جهة أخرى، وكانت قوافلها آمنة بفضل أحلاف هناك. وبلغ من نفوذها كذلك أن ســيطرت على أســواق بصــرى وأذرعات في بادية الشــام. وســيطرت أيضاً على المُشقّر، وهي من أعظم أســواق الخليج العربي، إذ كانت تستمر شهراً كاملا. وســيطرت علــى الرابيــة، وهي ســوق حضرمــوت مصدر أفضــل اللبــان، بفضل تحالفهــا مع بنــي آكل المرار أقوى القبائل هناك.

أما عُكاظ، وهي الأقرب في كبرى الأســواق إلى مكة المكرمــة، فكانــت فــي البدايــة، لقبيلة هــوازن المرهوبة الجانــب، ولم يكن يســهل على قريــش إدراجها بلا قيد ولا شــرط في نظام تجارتها. لكن شــبكة عهــود قريش امتدت إلى ملوك الأطراف الأربعة: الغساســنة في بلاد الشــام، واللخميون المناذرة في الحيرة بجنوب العراق، والحميريون

في اليمن، ومملكة أكسوم في الحبشة. وكانت الحوافز التي منحتها قريش للقبائل من أجل إشراكها في قوافلها التجارية مرنة ومغرية. ولم تكن حاجة القبائل إلى الحرم المكّي، على الصعيد الديني، قليلة شأن في تيسير أمر قريش، في قيادتها العرب ومشروعهم التجاري.

لقد حاولت هوازن في لحظة ما، في القرن الميلادي السادس، أن تنافس قريشاً في قيادة هذا المشروع، لكن لحساب الحيرة.

كانت للتجارة الدولية بين المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط، طرق ثلاث أساسية:

- من الخليج العربي إلى الفرات في سفن، ثم القوافل في بادية الشام، عبر تدمر حتى شواطئ البحر الأبيض المتوسط.
- البحر الأحمر حتى القُلزُم (السويس) أو أَيْلة (العقبة) في سفن، ثم القوافل إلى غزة أو مدن المتوسط الأخرى.
- القوافل الصحراوية عبر مكة، وهي تبدأ رحلتها من اليمن شتاءً (آخر شباط/ فبراير) وتنتهي إلى الشام صيفا.

اضطربت الطريقان الأوليان، عقوداً طويلة في القرن السادس والثلث الأول من القرن السابع، من جراء الحروب بين الساسانيين والبيزنطيين، وهي حروب استمرت على تقطع، من سنة ٥٠٢م، ولم تتوقف سوى بعد ظهور

الإسـلام، وفتح بلاد الشام سـنة ٦٣٤م. وكانت إذا هدأت بيـن المتحاربَين الكبيرَين، أكملها الـوكلاء حرباً محلية: في بادية الشام بين الغساسـنة والمناذرة، أو عند مدخل البحر الأحمـر بين مملكة أكسـوم في الحبشـة والحِمْيَريين في اليمن.

استفادت قريش من هذه السـانحة التاريخية النادرة، وطـوّرت الطريق الثالثة وجمعت قبائل العرب شـركاء في مشـروعها. لكـن الازدهـار الذي أحـرزه المشـروع، وصراع القوتين العظميين، بيزنطة والساسـانيين، للسيطرة على تجارة الشـرق الآتية مـن المحيط الهندي إلى المتوسـط، أسـالت لعابهمـا، وحفزتهمـا على محاولة السـيطرة على تجارة قريش، ومشروعها المستقل.

فأوعزت بيزنطة لحلفائها الغساسنة أن يغزوا خيبر، ثم يثرب، اللتين كانتا بيد يهود فيهما، هم يهود خيبر، وقبائل قريظة وبني النضير وبني قينُقاع في يثرب. كان اليهود في جزيرة العرب يناصبون بيزنطة العداء، فيما كان الغساسـنة نصارى يحالفونها. وقد سـجّل التاريـخ هاتين الغزوتين في ما ذكره الإخباريون العرب عن «مَفسَـد خيبر»، سنة ٥٦٧م، وسيطرة الأوس والخزرج في تلك السنة تقريباً، على يثرب، بمعونة الغساسـنة. واسـتكمالاً للإطباق على خط التجارة المكّي من الجنوب، أوعزت بيزنطة لأبرهة الحبشـي، وكان

حليفها، بعدما اســتولى على اليمن من ملوكه الحِميَريين، ليغزو مكة في سنة ٥٧٠م، في الحادثة التاريخية التي خلّدها القــرآن الكريم في ســورة الفيــل: {ألم ترَ كيــفَ فعلَ ربُّكَ بأصحــابِ الفيــل * ألَم يجعلْ كيدهم في تضليل * وأرســلَ عليهِــم طيراً أبابيل * ترميهِم بحجارةٍ من سِــجّيل * فجعلهُم كعصفٍ مأكول}.

ونعرف قصة انهزام أبرهة وموت جيشه وارتداده إلى اليمن حيث وافته المنية.

وقد بدا للساســانيين ومملكة الحيــرة، حليفتهم، أن انكفــاء أبرهــة وانتصــار مكة عليــه، قد يعنــي أن الفرصة ســانحة لهما ليســتوليا علــى تجارة قريــش، وعلى خطوط التجارة العربية لحســابهما، لا ســيما بعدمــا آل اليمن إلى ســيف بن ذي يزن، الذي أجهز على الاحتلال الحبشــي في اليمن، وتولى الحكم بتأييد ساســاني أكيد. لكن مكة أثبتت أنها تقود مشروعاً عربياً مستقلاً، وأنها غير مستعدة للتنازل عن أزِمّة القيادة، وأن رفضها هيمنة بيزنطية لم يكن يعني انحيازها للساســانيين، بل سعيها في مشروع مستقل عن القوتين العظميين.

فما الذي حدث في عُكاظ؟

تــرك لنــا الإخباريــون العــرب في كتــب التاريــخ، ما

قد يصعب على القارئ العادي فهمه، فلا يفك رموزه إلا الخبراء. لكن في كتاب "المحبَّر" الذي وضعه لنا أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية عمرو الهاشمي البغدادي، المتوفَّى سنة ٢٤٥هـ، قصة موجزة، سنحاول فك رموزها، لنكتشف رواية ما حدث.

لنقرأ أولاً نص ابن حبيب مثلما هو. يقول:

«وأما فتكُ البرّاض، وهو رافع بن قيس، فإنه كان حالَف بني سهم من قريش، فعدا على رجل من هُذيل فقتله. فجاء بنو هُذَيل إلى بني سهم، يطلبون بدم صاحبهم، فقال بنو سهم: هذا قد خلعناه وتبرأنا من جرائره. فقالت هُذيل: من يعرف هذا؟ فقال العاص بن وائل: أنا خلعته كما يُخلع الكلب. فسكت الهُذليون ولم يروا وجه طلب. فأتى حرب بن أمية فخالفه، فعدا على رجل من خزاعة، فقتله وهرب إلى اليمن. فأقام بها سنة، ثم قدِم ودنا من مكة. فإذا الهُذَليون والخزاعيون يطلبونه وقد خُلِع. فقال: ما لي خيرٌ من النعمان بن المنذر. فلحق به فوافق وفود العرب بالحيرة عنده. فأقام يطلب الإذن معهم. فلم يصل حتى طال عليه المقام وجفا. وكان للنعمان لَطِيمة يبعث بها كل عام للتجارة إلى موسم عُكاظ. فخرج النعمان، فجلس للناس بالحيرة، وكانت عيرات النعمان ولطائمه التي توافي سوق الموسم إذا دخلت تهامة لم تهج، حتى قَتَل

النعمــان أخا بلعاء بن قيس الكنانــي، فجعل بلعاء يعترض لطائمــه فينتهبها. ففعل ذلك مرتين. فخاف النعمان على لطيمتــه، فقال يومئذ: من يُجير هذه العير؟ فقال البرّاض: أنــا أجيرهــا لــك. فقال الرحّال عــروة بن عتبة بــن جعفر بن كلاب: أنت تجيرها على أهل الشيح والقيصوم؟ وأنما أنت كلب خليع. أنت والله أضيق استــاً من ذلك. ولكني أنا أيها الملــك أجيرها لك من الحيَّين كليهما. فقال البرّاض: أأنت تجيــر على تهامة؟ فلم يلتفت النعمــان إلى قول البرّاض، وازدراه. فدفع اللطيمة إلى عروة الرحّال، فخرج بالعير وخرج البــرّاض في إثره. فلما كان ببعــض الطريق، أخرج البرّاض الأزلام يستقســم بها، فقــال له الرحّال: مــا تصنع؟ قال: أســتخير فــي قتلك. فضحك عــروة، ولم يَرَه شــيئا. فلما انتهــى عــروة إلى أهله، دوين الجريب، بمــاء يقال له أُوارة، أنزل اللطيمة وسرّح الظهر، ودخل عروة قُبَّته، فنام. ووثب عليه البرّاض فقتله. ثم مضى حتى أتى خيبر، فكان بسببه حرب الفِجَار بين كنانة وقيس».

(المحبَّر، لأبي جعفر محمد بن حبيب، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، بلا تاريخ، ص ١٩٥ و١٩٦).

تعالــوا نُعِد قــراءة القصة، بعبارات تميــط اللثام عما تقوله هذه الرواية التاريخية وتوضحه. يقول ابن حبيب:

إن البــرّاض كان حليفاً لبطن من بطون قريش، فقتل

رجــلاً مــن هُذَيل، فلما جاء بنــو هُذَيل يطلبــون من قومه الاقتصــاص منه، هدر هؤلاء دمــه، وخلعوه من حمايتهم وأباحــوا لبني هُذَيــل قتله ثأرا. ثم قتل البرّاض رجلاً آخر من خزاعــة، فصار دمه مطلوبــاً في هُذيل وفي خُزاعة ولم تعد قريش تحميه. فهرب إلى اليمن ومكث هناك ســنة، فلما عاد خاف أن يقتله أصحاب الثأر، فقال في نفسه إن أفضل من يجيــره النعمان بن المنــذر في الحيرة بجنــوب العراق. فمضــى إلى الحيرة وانتظــر فرصة ليقابــل النعمان، لكنه انتظر طويلا حتى خرج ملك الحيرة إلى الناس ليســأل عمن فيهم يستطيع حماية قافلته التجارية، التي نهبها أخو بلعاء بــن قيس الكنانــي مرتين. وكانت قافلة النعمان الســنوية تقصد ســوق عُكاظ. وتبرّع للمهمة البرّاض وعروة الرحّال، وانتهت خِفارة القافلة إلى الرحّال، بعد اســتهزائه بالبرّاض. فصمــم البرّاض علــى قتل عروة، وهو مــن أعيان هوازن، وقتله فعلاً، فكان ذلك ســبب حرب الفجار في عُكاظ، بين كنانة وقيس.

أما القراءة المتأنية، فترى بين السطور صراعاً واضحاً، بيــن قريــش، وهي من مجموع قبائل كنانــة، وكانت تقود مشــروع قوافل تجارة الإيلاف، من اليمن إلى بلاد الشــام والعــراق، وبيــن قبيلــة قيــس التــي كانــت على مــا يبدو تبحث عن دور مســتقل، بالاســتعانة بملوك الحيرة، حلفاء

الساسانيين، لتسيير تجارتهم الخاصة. إذن كان ثمة تنافس بين مجموعتي القبائل هذه للسـيطرة على التجارة الدولية عبر شبه الجزيرة العربية. لم تكن هوازن وهي صاحبة عُكاظ، مـن أحلاف مكة، مع انها قريبة منها، وكانت تقيم سـوقاً يحضرهـا كل العرب، ولا سـيما قريش. وقد تكون محاولة البرّاض، وهو حليف قريش، مسعى لضم لطيمة النعمان (اللطيمة هي قافلة جِمال تحمل تجارة)، إلى شـبكة التجارة القرشية. لكن يبدو من تصميم النعمان على تسيير قوافله التجارية المستقلة، أنه كان يرغب في الاستيلاء على الخط التجـاري القرشـي، فكانت حـروب الفجار في عُـكاظ التي انتصرت فيها قريش، فحُسِم الأمر لمكة وإيلافها.

وإذا حدثـت هـذه الحروب لصـد نفوذ الساسـانيين، بين سـنتي ٥٨٥ و٥٩٠م، أي بعد ١٥ سـنة فقط من محاولة أبرهـة، حليـف بيزنطة هـدم الكعبة، فهي إذن بلا شـك، إعلان لاستقلال قريش عن كلتا الدولتين الكبريين: بيزنطة والساسـانيين. ولم تنتهِ بانضـواء التجـارة العربية الدولية كلها تحت جناح مكة وحسب، بل انتهت كذلك إلى استيلاء قريش على سـوق عُـكاظ، وجعلهـا تحت نفـوذ حلفائها، بعدما كانت لهوازن.


عكاظ المِرْجل
اللغوي
الفصل الثاني


الكبير

الفصل الثاني

عكاظ المرجل اللغوي الكبير

يتفـق علمـاء اللغـة العربية فـي الإجمال علـى أن القرآن الكريـم، بنزولـه بلغة قريـش، عمّم اللغـة العربية، لا بين العـرب وحدهم، بل كذلـك في كل ديار المسـلمين، عرباً وعجمـا. لكنهم وهم يؤكدون هذا، يـرون أن النزول بلهجة قريش ما كان يسـهّل للعرب فهم الآيـات، لو انهم كانوا يجهلون هذه اللهجة، التي كانت لقبيلة دون غيرها.

لذا لا بد من أن نعزو إلى أسواق العرب، وكانت عُكاظ أعظمهـا وأكثرها حشـداً للناس، العوامل والأسـباب التي أدت إلى تطوّر اللهجات العربية قبيل الإسـلام، على النحو الـذي قرّبها أشـد تقريب تمهيداً لاسـتقبال الوحي المنزل وفهمه. قال الله في كتابه العزيز: {وما أرسَـلنا من رسـولٍ إلا بلسـانِ قومِه ليُبيِّنَ لهُم} (الآية: سورة إبراهيم، ٤). في تلك الأسواق التقت القبائل وتبادلت البيع والشراء وكتابة العهود والتباري شعرا.

لـم يكن قُصّاد عُكاظ مـن قبائل الجوار فقط، بل كان يقصدهـا سـائر قبائـل العرب، مـن عرب الشـام والعراق

والخليج واليمن والبلاد المجاورة، على نحو يشــبه كثيراً ما صــار العالم المعاصر ينظمه من معارض وأســواق دولية. فكانت الســوق تضيق بمــن حضر، وكان التجار يكســبون فيهــا ما لا يمكن أن يكســبوه في أي ســوق أخرى، ولولا ذلك لما شدّوا إليها الرحال من هذه الأصقاع البعيدة.

يقول أحمد بن محمد بن حسن الأصفهاني المرزوقي، في كتابــه: الأزمنة والأمكنة (حيدر أباد الدكن، ١٣٣٢هـ، ج٢ ص١٦٨ و١٦٩): [لمــا] دخلت ســنة خمــس وثلاثين من عام الفيل، حضر الســوق من نزار واليمن ما لم يُعرَف أنه حضر مثله في ســائر السنين، فباع الناس كل ما كان معهم من عروض تجارية.

وكانت لــكل قوم من نزلاء الســوق منازلهم الخاصة ينصبــون فيهــا خيامهــم، ويرفعــون عليها راياتهــم، وكان علــى رأس كل وفد شــيخ القبيلة أو مــن ينوب عنه. وحين يأزف أوان البيع والشــراء، كانوا يخرجون من مضاربهم إلى المعــارض والأنديــة في رحاب الســوق، فيلتقــي اليماني بالشــامي والحجازي بالعماني، فتمتزج القبائل في شــتى الأمــور، ويبحثــون في البيــع والشــراء ويتبادلــون التفاخر والشعر، ويروون الأحاديث والروايات بعضهم لبعض، عما فاتهم من عام إلى عام. فكانوا على علم متصل بما في ديار الآخرين، يتسقّطون الأخبار عما يحدث بين أقصى الجنوب

الشرقي، في عمان، وأقصى الشمال من بلاد الشام.

لم يُغفل شـعراء الجاهلية، حين كانوا يؤمون عكاظاً، ذكرهـا أو ذكر بعـض مواضعها في شـعرهم. إذ حفظ لنا الشعر الجاهلي من تباريهم وتفاخرهم، قول الشاعر خداش بن زهير العامري:

فأبلغ إن مررتَ به هشاماً
وعبدَ اللـه أبلغ والوليدا
بأنّا يومَ شَمظَةَ قد أقمنا
عَمودَ الدينِ إن له عَمودا

وشمظة كانت من أيام الفِجار في عُكاظ. وقال الشاعر أيضاً:

ألَم يبلِّغكُم أنّا جَدَعنا
لدى العبلاءِ خندَفَ بالقيادِ
ضربناهُم ببطنِ عكاظَ حتى
تولّوا ضالعين من النجادِ

وظل العرب على هذا سـنوات طويلـة، حتى توحّدت لهجاتهم توحداً وثيقاً، لا سـيما من حاجتهم في الأسـواق إلى التفاهم في التجـارة وفي كتابة العقود والعهود بدقة ووضوح، وكذلك من تباريهم شعرا. وقد اختلف المؤرخون

في سنة بداية عقد السوق. فمن قائل إنها بدأت في سنة ٥٨٥م، إلــى مــن يخالف هذا بأنها بدأت ســنة ٥٠٠م، وهذا أقــرب إلى المنطق، لأن قريشــاً بدأت تدعــو قبائل العرب كلاً في دياره، إلى مداورة أســواقهم على مدار السنة، منذ أن أخذ لهم هاشــم بــن عبد مناف وإخوتــه عهود الإيلاف من ملوك الأطراف في الشــام والعراق واليمن والحبشة، حتــى يســيّروا تجارتهم الدولية. وكان هذا فــي أوائل القرن الميلادي السادس.

ويرى الدكتور جريدي المنصوري أن سوق عُكاظ أقدم من ذلك، فهو يرى بدء إقامتها في القرن الأول الميلادي، ســوقاً محليــة. ويــرى أن ســقوط البتــراء ســنة ١٠٦م بيد الإمبراطــور الروماني ترايانوس، قد أدى إلــى انتقال تجارة القوافــل إلى الحجاز ونشــاط التجارة في أســواقها، ولهذا فــإن مــا ورد من أن عمرو بن لحيّ الخزاعي، ســيد مكة في عصــره، هــو أول من عكف علــى تنظيم الشــؤون العامة بمكــة والحجــاز وترغيب ســائر العرب في حضور مواســم العبــادة والتجــارة، فعيّن للمواســم أئمــة يديرونها، وكان منهــم أئمة عــكاظ وقضائها، وهذا يعني أن ســوق عكاظ كانــت موجودة قبــل ذلك فنظمها ولم تنشــأ فــي زمنه. ويذكــرون أن ســعد بن زيد منــاة هو أول مــن اجتمعت له إمامة سوق عكاظ والقضاء بعكاظ، وهذا يعني أن السوق

كانت موجودة قبل ذلــك، وتعاقب على إمامتها وقضائها عدد من الناس، وأنها اشــتهرت بما يجعلها موضع اهتمام ســيد مكة، والأمثال التي صدرت عــن ضبة بن أد بعكاظ، بعد مقتل ابنه سُعيد وهو عم تميم بن مر بن أد، تعود إلى القرن الميلادي الثاني. وهذا يعني أن القوم اعتادوا حضور عكاظ وأنهم ينشــرون فيها أخبارهم وأمثالهم وأشعارهم، التي يتلقفها قبائل العرب، ولهذا يميل الدكتور المنصوري إلى أنها كانت موجودة في القرن الميلادي الأول.

أما في موعد قيام ســوق عُكاظ في بحر الســنة، فإن ابن حبيب ناقض نفســه في كتابيه: المحبَّر والمنمَّق، لكن المدقق سرعان ما يكتشف سر التناقض على نحو يؤكد أن موعد الســوق كان في أول ذي القعدة، عشــرة أيام، تليها سوق مجنّة ثم سوق ذي المجاز، قبل بدء مشاعر الحج.

كيــف إذن وحّــدت عُكاظ، أو أســهمت فــي توحيد لهجات العرب؟

كانــت لهجــات القبائــل العربية شــديدة التنــوّع قبل الإســلام، يدل علــى هذا ما تركته لنا المعاجم، ولا ســيما لسان العرب وصحاح الجوهري وغيرهما، من إشارة متكررة إلــى تنوّع الكلام عند هذه القبيلة أو تلك، في هذه الكلمة أو تلك. ويــرى علماء اللغة العربية أن الفروق بين اللهجات

لم تكن مما يُستهان به. وكان التفاهم صعباً، لا سيما بين البدو والحضر. وكانت لهجة بني كلب في الشام، أقرب إلى كلام البدو، من لهجة ربيعة عند ضفة الفرات. وكان القرب الجغرافــي يجعل حياً من قبيلة ما، أقرب لهجةً إلى حي من قبيلة أخرى. واتُخّذ هذا التشابه بفعل التماس، وهو يخترق حدود القبائل، دليلاً على أن اللقاء الســنوي في الأســواق كان فاعلاً جداً في تطور اللغة العربية إلى لهجات تسير نحو التقارب، ما دام التماس البشري يفعل هذا الفعل.

وفي عُكاظ، كانت تقام مساجلة شعرية، وكانت على صعيــد لغــوي راقٍ، لأن الشــعراء فيها كانوا يســعون في كسب قصب الســبق، والخروج بفوز على شــعراء القبائل الأخــرى. ولم يكن ظهور "لغتين"، واحدة للتخاطب اليومي والثانيــة فصحى، ســبباً لتبعثــر العرب بل العكــس، إذ ان الفصحى أنشــأت وعاء للجميع، يسهّل الاتصال والتجانس والتفاهم، أياً كانت "اللغة" الثانية.

كانت كثرة اللهجات تصعّب التفاهم في بداية العيش المشــترك الذي أحدثته الأســواق ومشــروع التجــارة الذي قادتــه قريش في إيلافها. لكن اللقاء الســنوي أخذ يضيّق مســاحة عــدم التفاهم، ويوسّــع مســاحة التماس شــيئاً فشيئا. لم يصبح التفاهم كاملاً، لكن عدم التفاهم لم يكن مطلقاً، بل كان يتقلص شيئاً فشيئاً مع كل عام في عُكاظ.

كان يــؤمّ ســوق عُكاظ الحكمــاء والقضاة والشــعراء والخطباء. وكانوا يخاطبون القبائل من على منابر، بحِكَمهم أو شــعرهم أو قضائهــم، بلغة عربية منقّــاة من اللهجات الضيقة، حتى يفهمها الجميع. بل كان مبشــرون يغشــون الســوق للدعــوة لدينهم. فكانت عُكاظ مِرجــلاً تعتمل فيه عوامل التوحد الثقافي واللغوي أيّما اعتمال.

أما الشــعراء فكان عليهم أن يلتزمــوا لغة قريش في الفصاحة والقصائد التــي يلقونها متبارين على حكّام. فما تقبله قريش يكون مقبولاً وما ترفضه يُشــاح عنه. وبذلك اختفــت هَنَــوات كثيرة من كلام العرب، مثــل عنعنة تميم وكشكشة ربيعة وتضجُّع قيس وتلتلة بهراء وعجرفية ضبّة وغمغمة قضاعة، وكلها مفسّــرة في لسان العرب. كذلك لوحظ انحســار استخدام لغة المُسنَد في اليمن، مع ازدهار عُكاظ والأسواق، واقتراب الزمن من ظهور الإسلام.

كان حكام الشعر في عُكاظ فحولاً مشهوداً لهم، وذُكر منهم النابغة الذبياني. فإذا فازت قصيدة من تلك المتبارَى بها، «عُلّقت». وفســروا التعليق على وجوه عديدة، فقيل: علقــوا القصيدة أي عدّوها عِلقاً، أي شــيئاً نفيســاً، وقيل: كتبوها بماء الذهب وعلقوها على أستار الكعبة المشرّفة، وقيــل: بل عَلقت في أذهانهم أي حفظوها عن ظهر قلب. ويُتَّفَق إجمالاً على أن المعلقات ثمان:

معلقة امرئ القيس الكندي
معلقة زهير بن أبي سُلمى المُزني
معلقة النابغة الذبياني
معلقة الأعشى القيسي
معلقة لبيد بن ربيعة العامري
معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي
معلقة طرفة بن العبد البكري
معلقة عنترة ين شداد العبسي
لكن بعض الباحثين يزيد:
معلقة الحارث بن حِلِّزة البكري
معلقة عَبيد بن الأبرص الأسدي

ولعــل من أجمــل ما قيل شــعراً في عُــكاظ، من غير المعلقــات، مــا قاله علقمة بن عَبَــدَة التميمي، في إحدى قصائده التي عرضها على قريش في السوق، فاستحسنتها:

طَحا بكَ قلبٌ في الحسان طروبُ
بُعَيدَ الشباب عصرَ حانَ مشيبُ
يكلفني ليلى وقد شطّ عهدُها
وعادت عواد بيننا وخُطوبُ
إذا غاب عنها البعلُ لم تُفش سِرّهُ
وتُرضي إيَابَ البعلِ حينَ يؤوبُ

فـإن تـسألـوني بـالـنـساءِ فإنــنـي
بـصـيرٌ بـأدواءِ الـنـساءِ طـبـيـبُ
إذا شابَ رأسُ المرءِ أو قلّ مالُـهُ
فـليسَ لـهُ مـن ودِّهِـنّ نـصـيـبُ

كانــت كثـرة الخطباء والشــعراء تُعزَى إلى أن الشــاعر والخطيب كانا يشــيدان بقبائلهما في المواســم، ويطريان بحســبها. وكانت القبيلة إذا ظهر لها شــاعر مُجيد، احتفلت بأحلــى ما يمكن الاحتفال من إقامة الولائم ولعب المزاهر مثلمــا كانوا يفعلون في الأعراس. ولــذا كانت الكلمة في عُكاظ دليلاً على مكانة القوم في باقي العرب.

ومــن أشــهر الأدلة علــى أن العــرب كانــوا يقصدون عُكاظــاً، ليعرّفوا بقومهم وبآدابهم وشــرفهم، أن أمية ابن خلــف الخزاعــي، حين هجا حســان بن ثابت فــي قصيدته، أراد أن يفشــيها بين الناس، فسعى في نشرها في عُكاظ، وذلك في قوله:

ألا مَن مُبلِّغٌ حسّان عني
مُغَلغِلةً تدبُّ إلى عُكاظ

فرد حسّان بقصيدة زايد فيها على أمية بقوله:

سأنشرُ إن بقيتُ لكم كلاماً
يُنَشَّرُ بالمجامعِ من عُكاظ

لم تكن المعلقـات والقصائد والخطب وحدها تندفع باللهجـات العربيــة نحــو مصــب واحــد، فأحاديــث التجارة والمجتمع والحرب والسلم والسياسة والعصبية والأحلاف والخلــع، وشــؤون الحياة اليومية، كانت مســاحتها أوســع للتمــاس فــي الأســواق والمواســم، ولعل هــذا التماس كان أشــد فعلاً من لغة الفصاحة في تقريب اللهجات قبل الإســلام، وهو أمر انقلب ربما إلى عكســه في الإســلام، مــن أثر التوحيد الشــامل الــذي أحدثه القــرآن الكريم، على صعيــد اللغة علــى الخصوص، وعلى صُعــد أخرى بالطبع. فصــار توحُّد اللهجات ممكناً بلغــة القرآن، من دونما حاجة إلى عيش مشترك وتماس في الأسواق.

ثمــة من يقــول مــن الباحثيــن إن لغـات القبائل لم تتحرك وحدها نحو الفصحى، بل ان لغة قريش أيضاً كانت تقترب في عُكاظ والأســواق الأخرى، مــن اللغة الفصحى التــي نزل بها القرآن الكريــم. لكن الأمر الأكيد، هو أن هذه اللغة الفصحى كانت قد سادت في العهد النبوي، في كل أنحاء شبه الجزيرة العربية تقريباً، فكانت الوفود إلى المدينة تُحــدِّث بهــا النبي صلى اللــه عليه وســلّم، بطلاقة، وكان يحضــر عُكاظ قبــل البعثة. كذلك لم تكن وفــود النبي إلى العرب تصادف أي عقبة لغوية في مهامها لدى القبائل.

كانــت قريش تختــار أفضل لغات العــرب حتى صارت

لهجتُها أفضلَها، ولو قال كل شاعر شعره في عُكاظ بلهجة قومه، لم يجد من يستحسـنه، ولوقفت شهرته فيهم، لم تتعدَّ إلى بقية العرب.







المعلقات وأصحابها


الفصل الثالث
الشعر في عكاظ
المعلقات وأصحابها

قالوا في عُكاظ.

حيـن نسـمع هـذه العبـارة، يختلط علينـا فهمهـا. فهل المقصود ما قاله الشعراء، وهم يقفون على أرض السوق قبل أربعة عشـر قرناً ويزيد، أم المقصود ما قال الشـعراء والأدباء والمؤرخون في العصور الحديثة عن السـوق وهم فـي أصقاع مختلفـة، أو ما قالوه في السـوق وعنها بعد إحيائها منذ سنوات أربع؟

لـذا كان عنـوان الفصـل الثالث: الشـعر فـي عُكاظ، يعبّـر عما قيل من شـعر في السـوق، أيـام الجاهلية. أما مـا قاله شـعراء عصرنا هذا عن السـوق، فآثرنـا فيه قلب عنوان الفصل الرابع: عُكاظ في الشـعر، بدلاً من: الشـعر في عُكاظ. وفي هذا تمييز للأمرين، أحدهما عن الآخر.

نشرت دور نشر كثيرة القصائد المعلقات، التي ألقيت في سـوق عُكاظ. وثمة شـرح لسـبع منها وضعه الزوزني. وهو المرجع الشعبي الأوسع رواجاً، لأنه يشرح كل بيت وكل كلمة في المعلقة، على النحو الذي يروي ظمأ كل قارئ.

والزوزنـي هو أبو عبد الله الحسـين بن أحمد الزوزني،

الذي توفي سـنة ٤٨٦هـ (١٠٩٣م). ويقـال إن المعلقات لم تُسَـمَّ معلّقات في يومها، وإن أول من سـماها كذلك هو ابن الكلبي، هشـام بن محمد بن السـائب، صاحب كتابي: الأصنام، وأنساب الخيل.

لـم يتفق الإخباريـون العرب في عـدد المعلقات، فابن عبد ربه الأندلسـي صاحب العقد الفريد، وابن خلدون صاحب المقدمة، وغيرهما، ابن الرشيق والزوزني نفسه، رأوا أنها سبع. ورأى ابن النحاس أنها تسـع، والتبريزي عشر. ويُعتَقَد أن سبب الاختلاف أن ما ألقي من أجمل قصائد الشعر المطوّلات، في سوق عُكاظ، كان يدخل في تصنيف المعلقة، فأدرج بعضهم في هذا الصنف قصائد لم يُدرجها آخرون.

لكن كثرتهم اتفقوا على سبع على الأقل.

وكانوا يسـمونها السـبع الطوال، أو المذهبات، لأن الجاهليين كانوا يخطّونها بماء الذهب ليلعقوها على أستار الكعبة المشـرّفة. وكان ثمة من يسميها: السّموط، لقول حكام الشـعر في عُكاظ، حين تعجبهـم قصيدة تُلقى على أسـماعهم: هذه سمط الدهر. وسَمَط الشـيء، أي علّقه.

١ - أمرؤ القيس (٤٩٧ – ٥٤٥م)

هـو حُندُج بن حُجر الكنـدي، وكان والده ملكاً، وكانت منازلهم غـرب حضرموت، وقُتل والده لجـوره على رعاياه.

كان مترَفاً في شـبابه، وتعسـاً في رجولتـه، وأمضى بقية عمره سـعياً في الثأر لوالـده، دون جدوى. وكان في فتوّته لعوبـاً زير نسـاء. وكتب في معلقته عن عشـقِه عنيزة ابنة عمه شُـرَحْبيل، وحجزِه ثياب عذارى كن مع عنيزة يغتسـلن في غدير يقال لـه: دارة جُلجُل، ثم عَقرِه ناقته لإطعامهن، وركوبه ناقة عنيزة، للحاق بالقبيلة الظاعِنة.

يبدأ امرؤ القيس معلقته بالبيت الشهير:

قِفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزلِ

بسِقطِ اللِّوى بَينَ الدَخولِ فحَومَلِ

ومن أشـهر أبياتهـا، وأجملها اخترنا هـذه، وفيها ذكر ليوم دارة جُلجُل وذكراه العزيزة على قلبه:

ألا رُبَّ يومٍ لكَ منهنّ صالحٌ

ولا سيما يومٌ بدارةِ جُلجُلِ

ويومَ دخلتَ الخدرَ خدرَ عنيزةٍ

فقالت: لكَ الويلاتُ إنك مُرجِلي

تقولُ وقد مال الغبيطُ بنا معاً:

عقرتَ بعيري يا امرأَ القيسِ فانزلِ

فقلتُ لها: سيري وأرخي زمامَهُ

ولا تُبعديني من جَناكِ المعلّلِ

أفاطمَ مهلاً، بعضَ هذا التدللِ

وإن كنتِ قد أزمعتِ صرمي فأجملِي
أغَرّكِ مني أنّ حبّكِ قاتلي
وأنكِ مهما تأمُري القلبَ يفعلِ
وليلٍ كموج البحرِ مُرخٍ سدولَه
عليَّ بأنواع الهمومِ ليبتلي
فقلتُ لهُ لمّا تمطّى بصُلبِه
وأردَفَ أعَجازاً وناءَ بكَلكَلِ
ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انجل
بصبحٍ وما الإصباحُ منكَ بأمثلِ

ثم يقول:
مِكَرٍ مِفَرٍ مُقبلٍ مُدبر معاً
كجُلمود صخرٍ حطّه السيلُ من علِ
فبات عليه سَرجُهُ ولجامُهُ
وباتَ بعيني قائماً غيرَ مرسَلِ

ويذكـر التاريخ أن امـرأ القيس قصد القسـطنطينية سـنة ٥٣٨م، ليطلب مسـاعدة الإمبراطور يوسـتنيانوس، بجيش يوسـع نفوذ بيزنطة في شـبه الجزيـرة العربية على حسـاب الفرس، لكن الإمبراطور لـم يُجِبهُ إلى طلبه، فعاد خائباً وأصيب بالجدري قرب أنقرة، ومات هناك.

٢ - طرفة بن العبد (٥٣٨ – ٥٦٤م)

اســمه عمرو بن العبد بن سفيان السعدي من بكر بن وائــل، كان قومه ينزلون في البحرين، ويَتِم صبياً من أبيه، وحرمه أعمامه حقه فــي الميراث، فعاش وأمه في بؤس. قال الشعر شاباً وكان أكثر مدحه وهجائه في بلاط الحيرة.

رعــى إبلاً له ولأخيه، وكان يلهو عنها بقرض الشِــعر، وفي هذا قال له أخوه: لمَ لا تستريحُ بإبلك؟ تُرى إن أُخذَت منــك، تردّها بشــعرك هذا؟ فقــال طرفة: فإنــي لا أَخرج بها أبداً، حتى تعلمَ أن شــعري ســيردها، إن أُخِذَت. فتركها وأخذهــا مضريون. فادّعى طرفة جوار عمرو وقابوس، ابني المنذر الثالث ملك الحيرة، وخاطبهما شعراً بقوله:

أعمرُو بنُ هندٍ ما ترى رأيَ صِرمةٍ
لها سببٌ تَرعى به الماءَ والشجرْ
وكان لها جارانِ قابوسُ منهما
وعمروٌ ولم أسترعِها الشمسَ والقمرْ

وقيل إن عَمراً وقابوساً عوّضاه إبلاً بدلها.

لكــن عمرو بن هند لم يُبقِ مع طرفة مودة حين تولى المُلك بعد وفاة المنذر الثالث، فمضى الشاعر مع صديقه عمــرو بن مامة، فــي تجارة إلى اليمن وماتــا مقتولين في طريق عودتهما، وكان طرفة لمّا يزل شاباً.

ظهـرت في معلقة طرفة شـكواه من ذويه، وحكمته فـي الدنيـا، وفخره بما له من شـجاعة وكـرم. وهي دليل تاريخـي ممتاز في خُلُق العربي الجاهلي وقيمه الاجتماعية والأخلاقية. وفيما يلي بعض أشهر أبياتها:

لخولةَ أطلالٌ ببُرقَةِ ثَهمَدِ
تلوحُ كَباقي الوشْمِ في ظاهرِ اليدِ

وقوفاً بها صَحبي عليّ مطيّهم
يقولونَ: لَا تهلك أسىً وتجلّدِ

إذا القومُ قالوا: مَن فتى؟ خِلتُ أَنني
عُنيتُ فلم أكسَل ولم أتبَلّدِ

ثم يقول في مواضع متفرقة:

فإن كنتَ لا تَسْطيعُ دفعَ منيّتي
فدعني أُبادرْها بما ملكَتْ يدي

فذَرني أُرَوّي هامتي في حياتِها
ستعلَمُ إن متنا غداً أيُّنا الصّدي

إذا ابتدرَ القومُ السلاحَ وجدتَني
منيعاً إذا بُلّت بقائمِه يدي

ستُبدي لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهلاً
ويأتيكَ بالأخبارِ مَن لم تُزَوّدِ

لَعَمرُكَ ما الأيامُ إلا مُعارَةٌ
فما اسطَعتَ من معروفِها فتَزَوّدِ

٣ - عمرو بن كلثوم التغلبي (نحو ٥٠٠ - ٥٨٤م)

هــو عمرو بن كلثــوم بن مالك بن عتــاب من تغلب، منازلهــم فــي الجزيــرة الفراتيــة، من شــمال بلاد الشــام والعــراق. جده لأمه المهلهل الشــاعر، وعمُّها كليب. ســاد قومَه وهو فتى لم يبلغ العشرين. وكان فارساً شجاعاً. كان يــزور ملك الحيرة عمرو بن هند، وينشــده الشــعر من دون مدح، وحين اختصما قتل الشاعر الملك سنة ٥٧٠م.

ارتهن عمرو بن هند من كلٍ من تغلب وبكر مئة رجل، ليجبــر القبيلتيــن على وقــف حرب البســوس. وحين مات رهائن مــن تغلب، فيما كانوا عند حلفاء لبكر، عطشــاً كما قال بعض، أو بريح السموم كما قال آخرون، وكادت الحرب أن تعــود، جمع عمــرو الملك أعيان القبيلتيــن في اجتماع توفيــق، انتهى إلى قول عمرو الشــاعر، والحــارث بن حِلِّزة معلقتيهما.

وقيــل إن معلقة عمرو بن كلثوم ألــف بيت، لم يبقَ منها ســوى مئة بيت تقريباً. وبعضها قيل قبل قتل عمرو بــن هند، وبعضها بعــد قتله. وهي تزخــر بالوعيد للملك، وبالفخر والحماسة.

من أشهر أبياتها، على غير اتصال:

أبا هندٍ فلا تَعجَل علينا

وأنظِرْنا نُخَبِّرْكَ اليَقينا

بأنّا نُورِدُ الراياتِ بيضاً
ونُصدرهُنّ حُمراً قد رُوينا
وإنّا العاصمون إذا أُطعنا
وإنّا العازمون إذا عُصينا
وإنّا المُطعِمون إذا قَدَرنا
وإنّا المُهلِكون إذا ابتُلينا
وإنّا المانعون لِمَا أَرَدنا
وإنّا النازلون بحيث شينا
ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا
فنَجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا
إذا بلغَ الفِطامَ لنا صبيٌ
تخِرّ له الجبابرُ ساجدينا
ملأنا البرّ حتى ضاقَ عنا
وظهرُ البحرِ نملأُهُ سفينا
لنا الدنيا ومَن أَضحَى عليها
ونبطُشُ حين نبطشُ قادرينا

٤ - الحارث بن حِلِّزة اليشكري (نحو ٥٠٠ – ٥٧٠م)

كان الحارث بن حِلِّزة سـيداً في قومه بني يشكر بن بكر بن وائل، من أهل العراق. وقد عُمِّر طويلا، واجتمع لدى عمرو بـن هند مع عمرو بن كلثوم، في مسـعى ملـك الحيرة في

الصلح بين القبيلتين، بعد حرب البســوس. وقد مال الملك إلــى الحــارث بأنه مدحه في المعلقة التــي ارتجلها بين يديه، فيمــا نفّره عمرو بن كلثوم، لأنه اكتفى بالتفاخر بقومه، من دون أن يطري بالملك في شــيء. ولذا رد الملك رهائنه من بكــر إلى الحارث. ولعل هــذا كان بداية الخصام بين العمرين، الملك والشاعر، وهو خصام انتهى بقتل الشاعر الملك.

معلقــة الحــارث طويلة جــداً، وقد حفلــت بأخبار أيام العرب وزخــرت بالفخر أيضا. ومن متناقض حال الحارث أن هذه المعلقة الطويلة كانت من شــاعر مقل، لم يخلد من شعره سوى المعلقة.

وهي تبدأ ببيت شــهير عن أســماء التــي تُخبر بعزمها على الرحيل، فيشــكو الشــاعر أنها تغادر، فيما يمل المكان ممن يبقون. ذلك في قوله:

آذَنَتنا ببينِها أسماءُ

رُبّ ثاوٍ يمَلُّ منهُ الثَواءُ

ويتحوّل إلى النزاع مع تغلب، فيقول:

أجمَعوا أمرَهم عِشاءً فلمّا

أصبَحوا أَصبحَتْ لهم ضوضاءُ

مِن مُنادٍ ومِن مُجيب ومن تَصْـ

ـهَالِ خَيلٍ خلالَ ذاكَ رُغاءُ

أيها الناطق المرقّش عنّا
عندَ عمرٍو وهل لذاكَ بقاءُ
أيها الناطق المبلِّغُ عنّا
عندَ عمرٍو وهل لذاك انتهِاءُ
لا تَخَلنا على غَراتك إنّا
قبلُ ما قد وَشَى الأعداءُ
أعلينا جُناحُ كِندَةَ أن يَغـ
ـنَمَ غازيهُمُ ومنّا الجزاءُ
أم جنايا بني عتيق فإنّا
منكُمُ إن غدرتُمُ لَبَراءُ

٥ – زهير بن أبي سُلمى (نحو ٥٢٠ – ٦٠٩م)

لمّا كان زهيرٌ هو القائل:

سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ومن يَعِش
ثمانين حولاً لا أبا لكَ يسأَمِ

فهـو حتمـاً عُمِّر ٨٠ سـنة علـى الأقَـل. وكانت هذه السـنوات شمسـية، لأن العرب الذين كانـوا اعتمدوا منذ أيام الجاهلية التقويم القمري، إنما كانوا يُنسئون الشهور، أي يزيدون شـهراً قمرياً على روزنامتهم، كل ثلاث سنوات تقريبـاً، من أجل أن تبقى الأشـهر القمريـة مطابقة تقريباً للمواسم الشمسية، حتى تسير قوافل الشتاء في الأشهر

الحرم، إلى اليمن. والسنوات المنسوءة في المدى الطويل، تكاد تساوي السنوات الشمسية في مجموع عدد الأيام. فإذا كانت وفاته في سنة ٦٠٩م، فإن مولده غير المعروف زمانه تماماً، لا بد أنه قبل سنة ٥٢٩م، وثمة من يقول بولادته سنة ٥٢٠م تقريبا.

هو زهير بن ربيعة بن رياح المُضري. وقد يَتِم من أبيه وهو صبي، فتزوجت أمه من أوس بن حَجَر، الذي عُني به، وجعله راوية له.

تزوّج زهير امرأة كنيتها أم أوفى ورُزق منها أولاداً ماتوا جميعاً، فطلقها وتزوّج كبشة بنت عمّار بن سحيم، من بني غطفان، وولدت له كعباً وبجيراً.

كان زهير أحكم شعراء العرب، وأكثرهم وقاراً في شعره. فقال فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كان لا يُعاظل (لا يخلط في الكلام)، ويتجنب وحشيّ الكلام، ولم يمدح أحداً إلا بما فيه. وكان كثير التنقيح والتهذيب في لفظه، حتى قالوا إنه ينظم القصيدة في أربعة أشهر، وينقحها في أربعة أشهر، ثم يعرضها على أصحابه في أربعة أشهر، حتى يتم له ذلك في حول كامل، أي في سنة كاملة، ولذا سُمّيَت قصائده: الحوليّات.

قال زهير معلقته في مدح الحارث بن عوف والهَرِم بن سنان، لدورهما في الصلح بين العبسيين والفزاريين،

بعد حرب داحس والغبراء، وقصتها معروفة في المراجع.
ومن أرق ما قاله في المعلقة:

تُذَكّرني الأحلامَ ليلى، ومَن تَطُف
عليهِ خيالاتُ الأحبّةِ يَحْلُمِ

وفيها البيت الشهير:

فشَدّ ولم يُفزِع بيوتاً كثيرةً
لدى حيثُ ألقَتْ رَحلَها أمّ قَشعَمِ

لكن أخلد ما فيها، تلك السلسلة من الحكم المتلاحقة في المعلقة، ونختار منها ما يلي:

سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ومَن يَعِش
ثمانينَ حولاً لا أبا لكَ يسأمِ
وأعلمُ ما في اليوم والأمس قبلَهُ
ولكنني عن علمِ ما في غدٍ عَمِ
ومَن يكُ ذا فضل فيبخَلْ بفضلهِ
علِى قومهِ يُسْتَغنَ عنهُ ويُذمَمِ
ومَن يجعَلِ المعروفَ من دون عِرضهِ
يَفِرْهُ ومَن لا يتّقِ الشتمَ يُشتَمِ
ومَن لا يَذُدْ عن حَوضهِ بسلاحهِ
يُهَدّمْ ومَن لا يَظلِمِ الناسَ يُظلَمِ

ومَن يغتربْ يَحسَب عدواً صديقَهُ
ومَن لا يكرّم نفسَهُ لا يُكَرّمِ
ومهما تكُن عندَ امرئٍ من خليقةٍ
وإنّ خالَها تَخفًى على الناسِ تُعلَمِ
ومَن يَجعلِ المعروفَ في غير أهلِه
يكُن حمدُهُ ذماً عليهِ ويَنْدَمِ
لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ
فلم يبقَ إلا صورةُ اللحمِ والدمِ

٦ – لبيد بن ربيعة (نحو ٥٤٠ – ٦٦١م)

عُمِّر لبيد فوق المئة، وفي ذلك قال:

ولقد سئمتُ من الحياةِ وطولِها
وسؤالِ هذا الناس كيفَ لبيدُ؟

هو أبو عقيل لبيدَ بن ربيعة بَن مالك بن جعفر بن كلاب العامري، كان شاعراً شهيراً في الجاهلية، وأسلم وكان من المؤلفة قلوبهم، فلم يقل شعراً كثيراً في الإسلام، ويقال إن له فيه بيتاً واحداً:

الحمدُ للهِ إذ لم يأتِني أَجَلي
حتى اكتسيتُ من الإسلام سِربالا

وقيل إنه قال شـعراً كثيراً بعد إسـلامه، لكنه لم يكن في جودة شعره في الجاهلية.

كان أبــوه مــن الأغنياء، لكن نعمتهم لــم تدم طويلاً، فتركــوا ديارهم فــي نجد، وارتحلوا إلى اليمــن، وعادوا إلى نجد بعد زمن. واتصل لبيد بالنعمان بن المنذر أبي قابوس، الذي ملك الحيرة سنة ٥٨٠م.

وقصة إسلامه، أن أخا لبيد ورجلاً آخر من عامر وفدوا على النبي محمد صلى الله عليه وسلّم، في جمادى الآخرة من ســنة ٨ للهجرة، ولم يدخلا في الإســلام، ثم ماتا بعد أيــام. ثم جاء المدينة في ســنة ٩ للهجرة وفــد عامري فيه لبيد، فأسلموا جميعا. ويقال إن إسلامه لم يَحسُن.

لما بلغ لبيد السابعة والسبعين من العمر، قال:

قامت تَشَكّى إليّ النفسُ مُجهشَةً
وقد حَمَلتُكَ سبعاً بعدَ سبعينا
فإِن تُزادي ثلاثاً تَبلُغي أملاً
وفي الثلاثِ وفاءٌ للثمانينا

أما المعلقة فتبدأ بقوله:

عَفَتِ الديارُ مَحلِّها ومُقامُها
بمِنَى تأَبّدَ غَولُها فرجامُها

ثم يقول في نفسه، وكان اسم حبيبته نوار:

أوَلَم تكن تَدري نَوارُ بأنني
وصّالُ عَقدِ حبائلٍ جذّامُها

تَرّاكُ أمكنةٍ إذا لم أرضَها
أو يَرتبط بعضَ النفوسِ حِمامُها
بل أنتِ لا تدرينَ كم من ليلةٍ
طلْقٍ لذيذٍ لهوُها ونِدامُها

وفي فخره بقومه، يقول في المعلقة:
إنّا إذا التقتِ المَجامعُ لم يزَل
منّا لِزازٌ عظيمةٌ جشّامُها
من معشرٍ سنّت لهم آباؤهُم
ولكلّ قومٍ سُنّةٌ وإمامُها
لا يَطبَعون ولا يَبورُ فِعالُهم
إذ لا تميلُ مع الهوى أحلامُها
فاقنع بما قَسَمَ المليكُ فإنما
قَسَمَ الخلائقَ بيننا علاّمُها
وإذا الأمانةُ قُسِّمَت في معشرٍ
أوفى بأعظمِ حظّنا قَسّامُها
فهُمُ السّعاةُ إذا العشيرةُ أُفظِعَت
وهمُ فوارسُها وهمْ حُكّامُها
وهمُ ربيعٌ للمجاورِ فيهُمُ
والمُرمِلاتُ إذا تطاولَ عامُها

٧ – عنترة بن شدّاد العبسي (... – ٦١٤م)

أدرك عنترة الإسلام، ولم يدرك الهجرة. وقيل إنه عُمِّر طويلا. ويقال إن النبي محمد صلى الله عليه وسلّم، قال: ما وُصِف لي أعرابيٌ قط، فأحببتُ أن أراه إلا عنترة.

هو عنترة بن عمرو شـدّاد العبسـي، أمـه زبيبة الأَمَة الحبشـية، ولم يَعـزُهُ أبوه إليه، حتى احتاج إلى شـدته في القتال. والقصة معروفة.

إذ نشـأ عنتـرة راعي إبِل في نجـد، محتقَراً في قومه، لكنـه كان شـجاعاً يُضرَب بـه المثل. أحب منـذ صغره ابنةَ عمـه عبلة بنت مالك، لكن عمه رفـض تزويجه إياها، لأنه عبدٌ أسـود. ولم يأنف ذووه أن يسـتغلوا قوته وبأسه في قتالهـم أعداءهـم، وكانـوا يحرّضونه عليهـم، ويطمعونه بعبلة ولا يفون بوعدهم.

وفي مرة أغار حي من العرب على عبس، فاسـتنهضه أبـوه بقولـه: كُرّ يـا عنترة، فأجـاب عنترة: العبد لا يُحسِـن الكرّ، بل يحسـن الحِلاب والصرّ. فقال له أبوه: كُرّ وأنتَ حر. فأدرك عنترة المغيرين ورد السـبي وفيه عبلة. فوفى أبوه بوعده وحرره، لكن عمّه مكث على رفضه تزويجه عبلة التي تزوجت من غيره.

حارب عنترة في حرب داحس والغبراء. وقُتل في قتال بين عبس وطي، سنة ٨ قبل الهجرة (٦١٤م).

وقد اتسم شعره بالحماسة والغزل على الأخص. وقيل إنــه كان يقول البيت والبيتين، حتــى قال معلقته، قصيدته الأولى الطويلة. لم يكن العبسيون يحفلون بشعر عنترة حتى سمعوا معلقته، التي أجاد قولها، فبدّلوا موقفهم منه.

قــال عنترة معلقته بعد حرب داحس والغبراء، ليعاتب عبلــة وأباه وعمه، ويفتخر أمامهم بشــجاعته وكرمه. وهي تبدأ بقوله:

هل غادرَ الشعراءُ من متردّمِ

أم هل عرَفتَ الدارَ بعدَ تَوَهُّمِ

ثم يفخر بنفسه وشهامته، فيقول:

أثني عليّ بما علِمتَ فإنني

سهلٌ مُخالَفتي إذا لم أُظلَمِ

فإذا ظُلِمتُ فإنّ ظُلميَ باسلٌ

مُرٌ مَذاقَتُهُ كطعمِ العلقَمِ

هلاّ سألتِ الخيلَ يا ابنةَ مالك

إن كنتِ جاهلةً بما لم تعلمي

يُخبرْكِ مَن شهِدَ الوقيعةَ أنني

أغشى الوغى وأعِفُّ عند المغنمِ

إلى أن يقول:

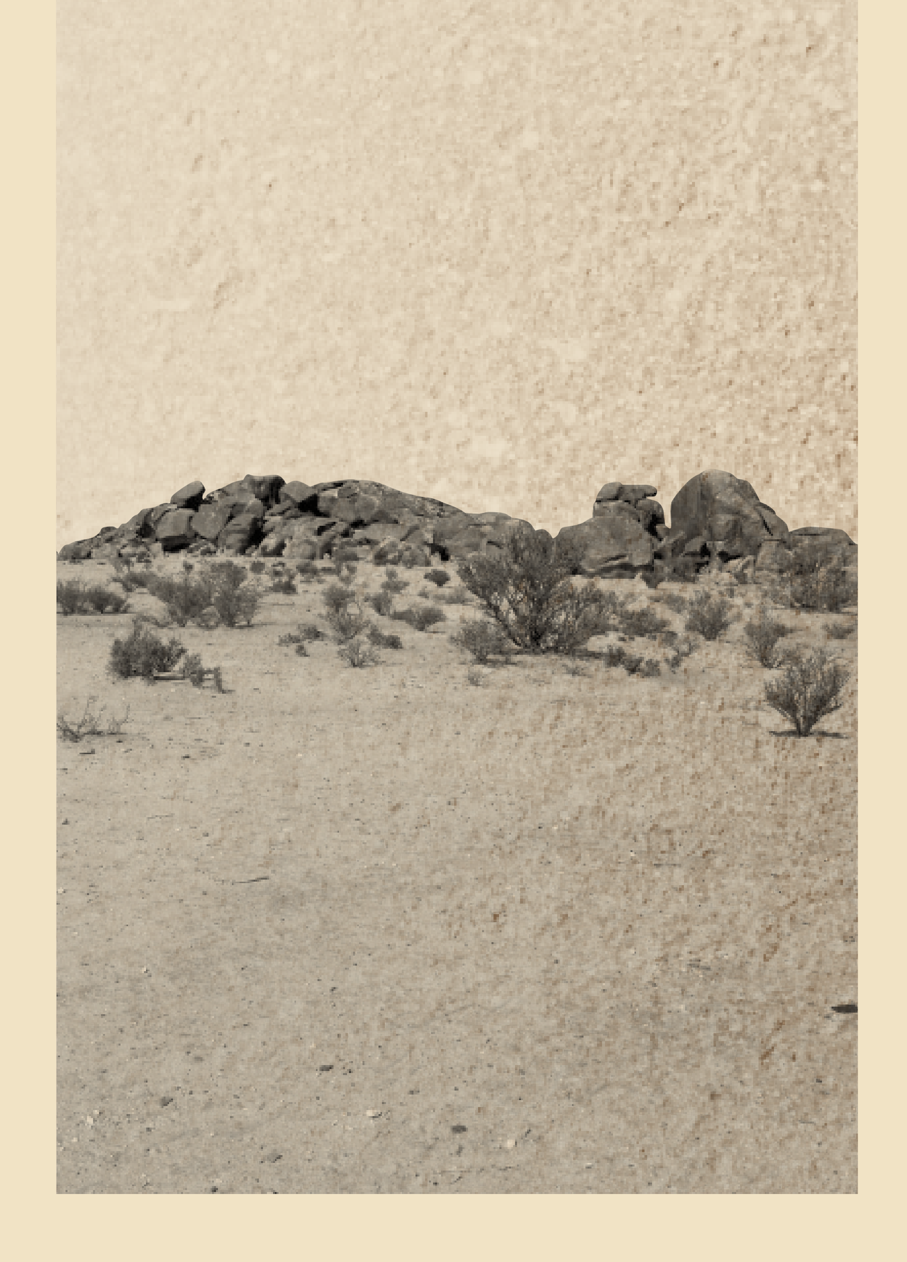
ولقد ذكرتُك والرماح نواهلٌ

مني وبيضُ الهندِ تَقطُرُ من دمي

فوددتُ تقبيلَ السيوفِ لأنها
لمعَت كبارقِ ثغرِكِ المتبسّمِ

ثم يخاطب أباه عمراً بقوله:
نُبّئتَ عَمراً غيرَ شاكرِ نعمتي
والكُفرُ مَخبَثَةٌ لنفسِ المُنعِمِ
لما رأيتُ القومَ أقبلَ جمعُهم
يتذامرون كررتُ غيرَ مُذَمّمِ
ولقد خشيتُ بأن أموتَ ولم تَدُر
للحربِ دائرةٌ على ابنَيْ ضَمضَمِ
الشاتمَيْ عِرضي ولم أشتُمهُما
والناذرَيْنِ إذا لم ألقَهُما دمي

استعين في مراجعة المعلقات كتاب عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ج ١، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٩٨١.

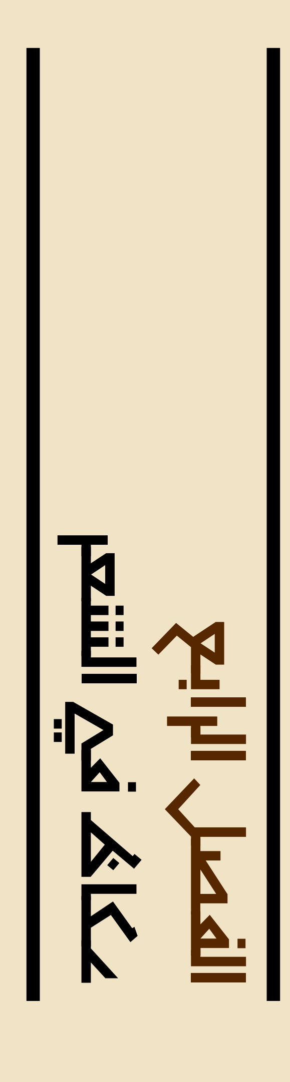






الفصل الرابع





بعد فتنة الحرورية التي قضت على سـوق عُكاظ، وغيّبتها ١٣ قرنـاً، ظلت سـوق عُكاظ فـي ضمير الذيـن عرفوها، وعرفوا معناهـا المحوري في حياة العـرب عموماً، إلهاماً وحنينـاً وحلمـاً يراود من تاق إلى عودة مجـد عُكاظ والعزة التي صنعها للعرب.

لكـن أكثر مـا برز من معانـي عُكاظ، أنهـا صارت عند العـرب، في العصور الحديثة، رمزاً للشـعر وقـوة أثره في الوجدان الشعبي.

ولا شـك في أن عُكاظاً ذُكرت كثيـراً في العصر الحديث عند الشعراء، حتى جاء مشروع إحياء السوق، قبل أربع سنوات، لتشـتعل قريحة عدد من شـعرائنا من جديد في مدح السـوق وفضائلها. وقد أحسن الأستاذ حمّاد بن حامد السالمي صنعاً، حيـن جمع في كتابه: ديوان عُكاظ، الصـادر عن النادي الأدبي الثقافـي في الطائف، سـنة ١٤٢٨هـ، زبدة ما قيل شـعراً في موضوع السـوق. وسـنعتمد على هذا الكتاب في استعراض الشعر الذي أتى على ذكر عكاظ، في عصرنا الحديث.

وأول من يُذكر من شعراء العصر الحديث، ممن جاءوا

علــى ذكــر عُكاظ، شــاعر النيل حافــظ ابراهيــم إذ قال في تشبيه دار الكتب المصرية:

وخطبتُ أبكارَ المعاني منكمو

وزففتُها بنفائسِ الألفاظِ

فكأن نجداً والحجازَ عشيرتي

وكأن هذي الدارَ سوقُ عُكاظِ

وفي احتفال أقامــه صاحب جريدة "عُكاظ" المصرية في ٣ ديسمبر ١٩٢٠م، قال حافظ ابراهيم:

أتيتُ سوقَ عُكاظ — أسعى بأمر الرئيس

أزجي إليهِ القوافيً — منكّساتِ الرؤوسَ

وليلة من عُكاظِ — ضمت حماةَ الوطَيسِ

أحيا بها ذكرَ عهدٍ — آثارُهُ في الطروسَ

عهد سما الشعرُ فيهِ — إلى مجالِ الشموسَ

ووِردُهُ كان أصفى — من موردِ القاموسِ

أما أمير الشــعراء، أحمد شــوقي، فلم يغب عن باله، وهو يتقبل بيعة أمارة الشعر، أن الشعر عُكاظ، فأنشد قائلاً:

يا عُكاظاً تألّفَ الشرقُ فيهِ

من فلسطينهِ إلى بغدانهِ

افتقدنا الحجازَ فيه فلم نَعْـ

ـثُر على قِسِّهِ ولا سحبانهِ

ولا غابت فكرة هذه الصلة الوثيقة بين الشعر وعُكاظ يوماً عن بال شـعراء العـرب، حتى صارت رمـزاً وإلهاماً، فيقول محمـد مصطفى حمـام، في وصفه جامعـة أدباء العروبة في مصر، سنة ١٩٧٢م:

أعَدنا وإيّاهم عُكاظاً وسوقَها

ومنا ملوكٌ للبيانِ ومنهُمو

وقد ألِفَت بين القلوب عروبةٌ

يرِفُّ علينا ظلّها وعليهمو

وفي العام نفسـه، كان الشـاعر السعودي حسن القرشي، في مهرجان الشعر الحادي عشر في تونس يقول:

موئلٌ جمّعَنا عاماً فعاما

وعُكاظٌ بذرى الفكرِ تسامى

ونديٌّ نتغشّاهُ على

فورةِ الشوقِ فما يروي الأواما

أما الشاعر اليمني أحمد المرَوني، فأسف على انفراط عقد عُكاظ كل هذه السنين، ومعها ائتلاف العرب، بقوله:

كم ملأنا صحائفَ الأرض لغواً

وسخِفنا بسخفه الأذواقا

وفقدنا عُكاظَ سوقَ ائتلاف

وأقمنا بخِلفِنا أسواقا

سئمَت لغوَنا النوادي جُزافاً
ورخُصنا تزلفاً ونفاقا

وبعدما أحيا المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز فكرة إقامة السـوق، وأخذت الفكرة طريقاً إلى التخطيط والتفكر والتنفيذ، تحمّس الشعراء، فقال الشاعر السعودي سعد البواردي:

عُكاظُ فيكِ تناغى الجُرْسُ والنغمُ
اليومُ يومُكِ جَلّ أيها القلمُ
عُكاظُ الضادُ لم تَعقَم وما هرمَتَ
عُكاظُ الضادَ خِصبٌ بل هي الهرمُ
إطلالةُ الفكرِ من واديكِ خالدةٌ
لا الجهلُ يحجبُها لا الذلّ لا الظُلُمُ

وقال الشاعر محمود عارف:

هذا عُكاظٌ وهو للعُربِ الأُلى
في الجاهليةِ منتدى الأُدباءِ
في مطلعِ الإسلامِ لا يَخفى على
أحدٍ بما أعطى منَ الإثراءِ
قولوا لأهل الرأي إن تراثَنا
متوافرٌ لكن بغيرِ بناءِ
صونوا التراثَ فيومُ عيدٍ أن نرى
فيهِ عكاظاً ثابتَ الإرساءِ

فعُكاظُ في التاريخ معلمُ عزةٍ
لبَلادنا في الحقبةِ العذراءِ

ولحظ الشــاعر أحمــد الغزاوي الخلاف فــي موضع عُكاظ، ورثاها لضياعها، فقال:

شاقني الرسمُ شاخصاً والوقوفُ
تتهجّى الأقلامُ فيهِ السيوفُ
بين فخ وبين وَج وسلعٍ
والعوالي رفارفٌ ودفوفُ
ألفُ عامٍ خلت وبعضُ قرونٍ
وعُكاظٌ يلَوي به التعريفُ
جهلوهُ وما دروا عنهُ حتى
زاد فيهِ الخلافُ والتكييفُ
هل سلا عنهُ أهلُهُ وهو منهم
منهلٌ سلسلٌ وظلٌ وريفُ

أما نزار قبّاني فاشتكى وتذمّر من حال العرب، فكان لعكاظ نصيب في شعره حين قال:

كلَ عامٍ نأتي لسوق عكاظٍ
وعَلينا العمائمُ الخضراءُ
يا عصورَ المعلقاتِ مَللنا
ومن الجسمِ قد يملُ الرداءُ

نصفُ أشعارِنا نقوشٌ وماذا

ينفعُ النقشُ حين يهوي البناءُ

الدواوينُ في يدينا طروحٌ

والتعابيرُ كلُّها إنشاءُ

ما هو الشعرُ حينَ يُصبحُ فأراً

كسرةُ الخبزِ همّه والغِذاءُ

وحين أخذت فكرة إحياء الســوق تتحرك بجد، ابتهج الشاعر إبراهيم علاف واستبشر، فقال:

بين جنبيّ طائرٌ خفّاقُ

مستهامٌ تؤزّهُ أشواقُ

ظل يرنو إلى عُكاظ طويلاً

قد تلاشت لفجرِها الأغساقُ

حيث كانت خطى العروبةِ يوماً

تتلاقى وتُنصتُ الآفاقُ

وسْطَها كانتِ البلاغةُ تطغى

يتملّى فنونَها الحُذّاقُ

نِعمَ ماضيكِ يا عُكاظُ مجيداً

سوف يُحييهِ حاضرٌ برّاقُ

ستكونين منبراً لقلوب

وعقولٍ عطاؤها سبّاقُ

ستكونين للقريض شفاءً
وَوفاءً فحالُهُ إشفاقُ
ستكونين للتفرنج رصداً
جَهبَذياً فتَصلُحُ الأذواقُ
ستكونين للفنون ربيعاً
فيهِ للروحِ سلسلٌ دفّاقُ
ستكونين للتعصّب حرباً
لقَضايا علاجُها ترياقُ
ستكونين للتضامن فتحاً
يتَولّى اكتمالَه ميثاقُ
ستكونين صحوةً للبرايا
يا لَصُهيونَ سعيُها إخفاقُ

ولم تكن حماسة الشاعر حسين عرب أقل، فقال في إحياء السوق:
أرجِعوهُ لمجدِهِ ومكانِه
وارفعوهُ عن عهدِه وزمانِه
واصنعوا في رحابِهِ مهرجاناً
يستنيرُ الزمان من مهرجانِه
واسألوا في عُكاظ قيثارةَ الشّعـ
ـرِ تُجبْكُم بالعَذبِ من ألحانِه

وطنُ الضاد قد دعاكُم فلبوا

من محيطاتِه إلى خلجانِه

يصلون التراث متصلاً من

عهدِ قحطانِهِ ومن عدنانِه

ويفيضونَ من بيانٍ نقيٍ

مُستمدٍّ كالنهرِ في فيضانِه

وقال الشاعر مطلق الثبيتي:

أفيضي علينا ربّةَ الشعر بالشعر

وكونيَ على قلبي أحرَ منَ الجمرِ

وهاتي القوافي مرسَلاتٍ دوافقاً

مَعينُ قوافيها من القلبِ والفكرِ

وأَلقي على سمعِ الزمانِ قصائدي

وغنيِ بشعري وانسبيني إلى شعري

فيا أمةً أحيَت عكاظَ وشيّدت

بياناً وأحيَت روضَها عاطر النَشرِ

وكانت لها حسنُ الخصالِ قلائدٌ

من البرِ والإحسان ليست من الدرِّ

ويخاطب الشــاعر بهاء بن حســين عزي الســوق في شعره فيقول:

يا عُكاظاً! والهَتفُ من عمق نجدِ
أنا ذو التَاج صِنوُ عرشِ البيانِ
إيتِ للشعرِ بالجبالِ وبالوَر
دِ وصَفقِ التُّجّارِ ذا صولجانِ

ثم يأسى للإشاحة عن سماع شعر عكاظ، فيقول:

واللهِ ما استمعوا لشعر عُكاظه
وتأَمَلوا الإِبداعَ في بُنيانِهِ
ورأوا قضاةَ الشعر حين تهيّأوا
لَلحكمِ أحكمَهُ مدى إتقانِهِ

ويقول عبد الله بن عبد الكريم العبادي:

في عُكاظٍ كم بها من أثر
مشرقٍ تاريخُها لا يندثِر
هذه الطائفُ والتاريخُ فَي
كلّ ركنٍ من حِماها قد سُطِر

ويقول الشاعر عبدَ اللهً بن محمد بن جبير:

هذا عُكاظُ (...) أعيدَ موسمُه
فيهِ الأميرُ وفيهِ السادةُ الصيدُ
وإخوةُ الحرفِ إذ فاضَتْ قرائحُهم
بالمستجادِ وقلنا طِبتمو زيدوا

ويقول الشاعر حسن بن محمد الزهراني:

عُكاظُ ما زال على رفرفٍ
خضرٍ ووشمُ المجدِ لا يُجهَلُ
لعادياتِ البوحِ في ثغرِهِ
مضمارُ شوقٍ وجهُهُ أشهلُ
ذاكرةُ التاريخِ مملوءةٌ
من عبقري الشعرِ تستنهلُ

ويقول الشاعر مسفر بن معجبَ الزهرانَي:

وهناك سوقُ عُكاظَ رمزُ حضارةٍ
متوهّجٍ كاللؤلؤِ البرّاقِ
ما زلتَ يا سحرَ الإلهِ قصيدةً
منقوشةً بالتبرِ في الأعماقِ

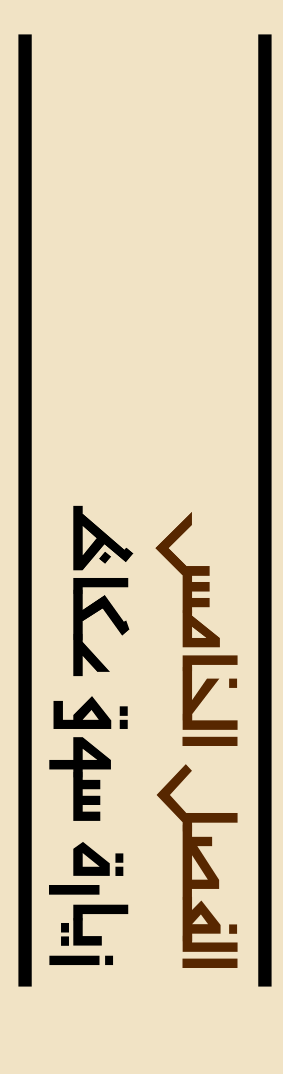




زيارة

الفصل الخامس


سوق عكاظ


الفصل الخامس
زيارة سوق عكاظ

يبعد موقع السوق ٤٠ كيلومترا من الطائف.
وأول الطريق جبلية، لكن حين تدخل الطريقُ منطقةَ سهل فسيح، يحسّ المسافر أنه صار في حضرة عُكاظ، التي قرأ عن انبساط موقعها واتساعه الكبير.

إذن هنـا أو بالقـرب من هنا، جلـس النابغة الذبياني، وأصدر أحكامـه التي جعلت المعلقـات معلقات، وانتقت أعظم شـعر العرب، ليصير في رأي العارفين الأجانب، قبل العـرب، من أخلـد ما أولدته قرائح شـعراء البشـر على مر العصـور. ما أعظم ذلك الذي جعل نفاسـة الشـعر ميزانه الوحيـد، فخـرج مـن خيمـة الانتمـاء القبلـي والمصلحة الشـخصية والدهاليز الضيقـة، وأصدر حكماً صـار بمثابة حكم التاريخ في أعظم الأدب. إنه نابغة بحق.

وهناك رثت الخنسـاء كليبـاً أخاها، بين جموع القبائل العربية التي جاءت تبيع وتشتري، ثم تسمع الشعر.

وهنالـك احتربـت القبائل فـي حـروب الفِجار خمس سـنوات، لتبقى قوافل التجارة الدولية عبر شـبه جزيرتهم، خالصـة للعـرب، تحت زعامـة قريش، وإيلافهـا، فلا تمتد

إليها يد من خارج.

هنــا إذن صُنِع فصل محــوري من تاريخ العرب الأدبي والاقتصادي، وهنا أخذت تتكوّن ملامح وجدانهم الثقافي ووعيهم السياســي. وهنا ذابت فروق لهجاتهم، لييسِّر الله فهمهم الوحي، الذي أُرسل بلهجة قرشية فصحى.

وهنا شهد الرسول الأعظم مشاهد القبائل المجتمعة في الموسم، قبيل المبعث.

فهل ثمة أماكن كثيرة بهذا الجلال في دنيانا؟

إن مجــرد التفكيــر بكل هــذه الأعمــاق التاريخية التي يكتسبها الموقع، يبعث القشعريرة في النفس، حين تطل على هذا المنبسط الشاسع من الأرض، الذي لا يكاد يغيب اللون الأخضر عن امتداده الواسع.

الســهل خالٍ من التضاريس والوديــان التي يمكن أن تســوق الماء لتنحصر في مســاحة ضيقة، لذا حين تمطر، وهــذه منطقــة مطيرة نســبياً، يحار الماء فتــرى بقع الماء تحت أشــعة الشــمس كأنها لآلــئ، تلمع فــي كل الأنحاء. فتتشبع الأرض ماء، وينبت الزرع.

لكنــه ليــس من أي نوع مــن الزرع، بل هي حشــائش وشــجيرات صغيرة القامة. لكنها ممتــازة لرعي الإبل التي تكثر في السهل. ولها سوق تباع فيها الإبل وتُشترى.

أول مواقــع يزورهــا الزائــر الأُثَيْــداء، وهــي موقع

فيــه صخور أشــبه بالنُصُــب المنحوتة، بأشــكال جميلة التكويــن، تظلِّل كهوفاً تغري بالاســتلقاء، لكن أغرب ما في تشــكيلة الصخور في موقع الأثيداء، ذلك المســرح الصخــري الطبيعــي الذي ينبســط أمام هــذه الصخور، وكأنــه، على ما يتكهن المؤرخون، كان المنبر الذي يقف عليــه الشــعراء ليلقــوا قصائدهم أمام الشــاعر الحكم، النابغة الذبياني أو غيره.

أين كانت إذن قبة الحَكَم، وكان لا بد من أن تعلو على منبر الشاعر؟

لعلهــا نُصِبَت فــوق أعلى الصخور هــذه، ليُطل منها الحكم على الشــاعر وعلى جمهوره معاً، وكأنك في محفل عصري حسن الهندســة جيد التنظيم. ما كان أسبق هؤلاء القوم إلى كل هذه القيم!

هنا رســت آراء المؤرخين. فهذا أوفر الأماكن حظاً في أن يكون المكان التاريخي الذي قام فيه منبر الشــعر الأول في تاريخ البشر. ففي هذا الموقع تقاطعت خيوط الوصف الجغرافي الذي اهتدى به المؤرخون من خلال القصائد التي وصفــت المكان في المعلقات وغيرها، ومن خلال روايات الإخباريين العرب الأوائل الذين شــهد بعضهم السوق في سنوات القرن وثلث القرن الأولى في الإسلام، ثم تووِرثت الروايات عند اللاحقين مــن المؤرخين العرب، فبقي بذلك

لنــا الوصــف الجغرافي الذي استرشــد به مؤرخونــا اليوم لترجيح مكان السوق.

حيــن ينظر الزائر إلى الســهل، يبدو لــه ناحية الجنوب جبــل الحضن، الذي قيل فيه: من شــاهد حضناً فقد أنجد، أي ان هذا كان الحد الفاصل عندهم بين الحجاز ونجد. وإلى الشــرق جبل العبــل، وخلفه العبيلاء، وهــو جبل أصغر من العبــل وهــو أبيض اللون، ولذا اتخذ تصغير اســمه اســماً لــه. وإلى الجنوب الغربي، جبل الصالح. أما ناحية الشــمال الشرقي، فجبل الخَلَص ولونه أسود، وبقربه الموقع الآخر الذي اشتَبه المؤرخون في أن يكون فيه موقع سوق عُكاظ. وقــد رَجَحت أخيراً كفــة الأثيداء، على الرغــم من أن القول القاطع لم يصدر عن العلماء، مع ترجيحهم هذا. والظن أن السوق كانت في الجاهلية تقام كل عام في مكان، لاتساع السهل، وكثرة الناس الذين يؤمون الموسم. ولذا اختلفت الآراء. لكــن المســرح الصخــري لا يوحــي فقــط بتفضيل الأثيــداء، بــل يغري أيضــاً بهذا التفضيل، مــع قول العلم. فمن يرَ ذلك المســرح لا يمكن أن يشيح بفكره عن تشبيه المكان بخشــبة مسرح تعلو مقاعد المشاهدين. ومن هذا المــكان ترى مزارع النخيــل حيث الواديــان، وادي الأخيضر ووادي شــرب، اللــذان ذكر المؤرخون ان ســوق عكاظ يقع قرب ملتقاهما.

إنه المكان!

يمِّــم صوب جبــل الخَلَص، وتوقَّف فــي الطريق عند قلعــة العرفاء، وهي قلعة موغلة فــي القدم، كانت خراباً، ورُمّمت على رســم أُسُســها الباقية في الأرض، وبالحجارة نفســها التــي كانت، وبأَســاليب البناء نفســها، أي رصف الحجــارة بعضها فوق بعض، من دون ملاط يشــدّها. إنها بالفعل من عجائب ما أبدعه عقل المهندسين القدامى في البنــاء، من دون أن يتســلحوا بما نعرف اليوم من وســائل العمارة الحديثة وأدواتها وموادها.

لم تنته المشاهد، على طول الطريق إلى الخَلَص!

فقد انتصبــت على هذه الطريــق مجموعة أخرى من الصخــور، جميلة التكوين، تســمَّى الســرايا الحمراء، نقش عليها القدامى نقوشاً فيها الأدعية وفيها الأسماء، بل فيها رسم شهير من عصور موغلة في القدم، تمثل ذئباً ورجلاً، على عادة ســكان الكهوف الذين كانوا يجلَون الحيوان، ولا ســيما المفتــرس. في تلك المجموعة مــن الصخور كهف كبيــر لا تــزال في ســقفه نقــوش عديدة. وكانــت هوازن، علــى ما يقال، تُجِلّ تلك الصخور وتتعبد عندها جهاراً، قبل اهتدائها إلى الإسلام.

وفــي الخَلَص حيــث كانت أولــى المنشــآت الحديثة لإحياء الســوق، ترى قبة النابغة والخنســاء والخيام الأخرى

التي عادت إليها أصداء الشعر تتردد، في رحلة يراد لها وبها أن تزدهر من جديد مواسم العرب، التي بشرت بنهوضهم.

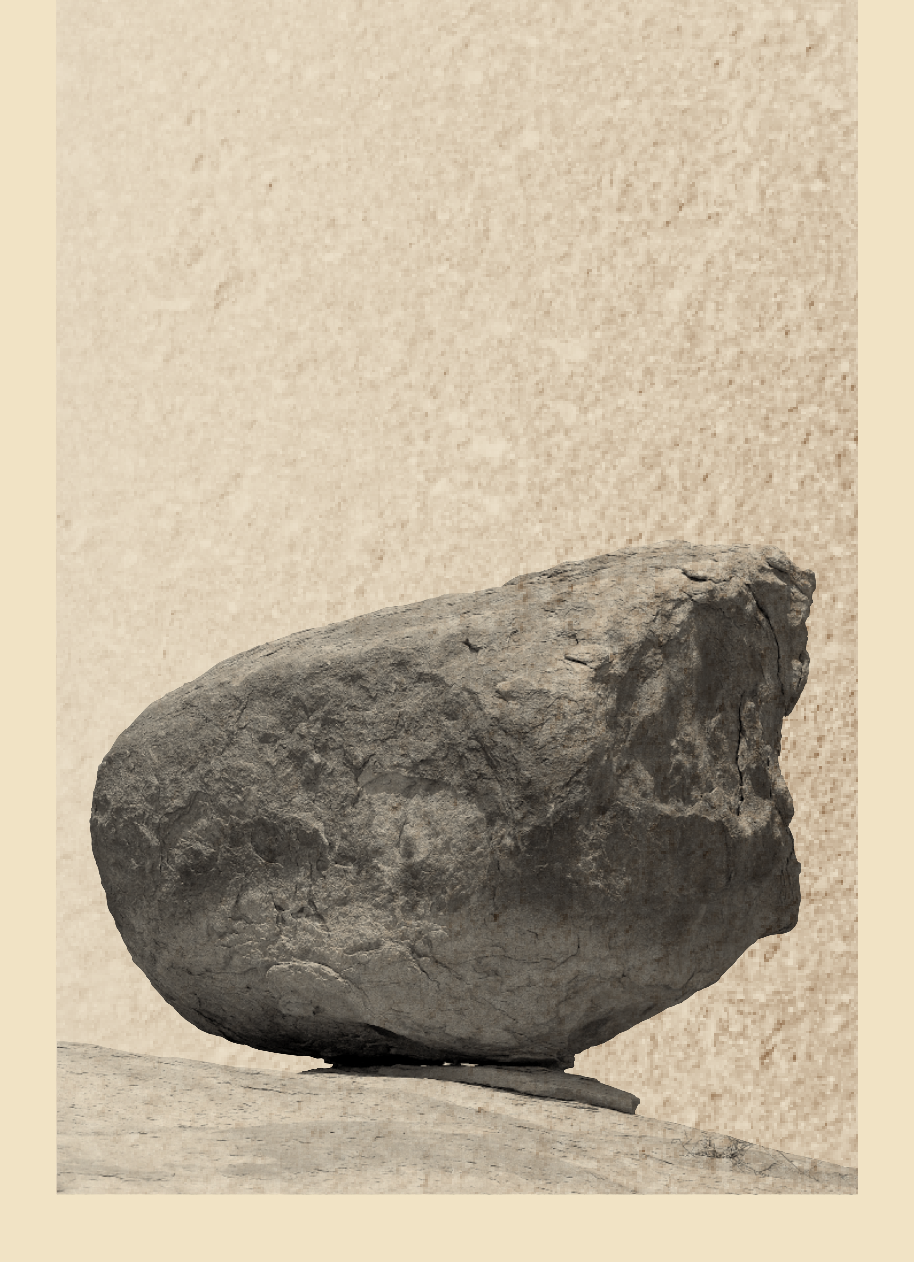
ذلك هو سوق عكاظ.

* * *

أمــا النزول من الطائف إلى جدة، من طريق «الجبل»، أي الهدا، فقصة أخرى.

فمن على الســهل المرتفع، الــذي تقعد عليه عُكاظ، تنــزل الطريق مــن هذه الناحيــة، في منحدر ســاحر، قلما يُــرى مثيلٌ لــه. فمع تعرّج الطــرق المرصوفة بمواصفات ممتــازة، كالثعبــان المتلــوي علــى بطــن الجبــل، تأخذك الدهشــة لمشــهد تلك الجبال الشــديدة الوعــورة، وكأنها خرجــت للتو مــن فوهة بــركان، فلم يمسســها بعد تآكل ســوى تلك الأخاديد التي خدّتها سيول على جنباتها، وتلك الطرق التي عُبِّدَت لتسلقها. ما عدا ذلك، لم تهذبه عوامل الزمن، ولم تقلّمه رياح.

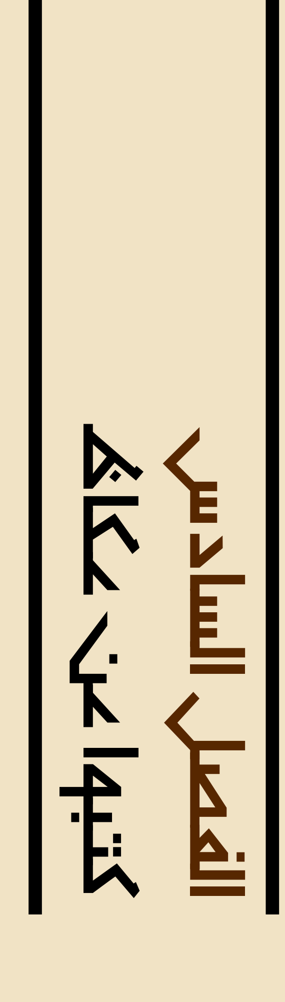
إنه المشهد الذي لا يُنسى، قبل الوصول إلى السهل، وادي نعمــان، وهو ينبســط بيــن الجبال علــى جانبيه، في طريق العودة إلى جدة.







الفصل السادس



لقد سلف ذكر ما قيل قديماً على أرض عُكاظ، ولا سيما المعلقات السبع الخالدة.
ويذكر هذا الفصل ما قيل في العصور الحديثة، وما كتبه الأدباء والمؤرخون، عن سوق عُكاظ، الرمز والحلم والذاكرة، والمكان والموقع أيضا.
وقد نشطت الكتابة في شأن السوق، مع جهود إحيائها، وصدر عدد من الكتب، استحوذ فيها الجدال حول موقع السوق التاريخي، على نصيب كبير.

وفيما يلي بعض أهم الكتب الحديثة التي صدرت في المملكة، في شأن سوق عُكاظ.



سوق عُكاظ، لمحمد موسم المفرجي.
وهو مجموعة مقالات، جمعها المؤلف، في أمر النقاش الذي كان عن موقع السوق، والآراء فيه، وهو سجال وقع سنة ١٤١٥هـ، قبل إحياء السوق بنحو ١٣ سنة. وصدر الكتاب سنة ١٤١٧هـ.

وكان الملك فيصل بن عبد العزيز، يرحمه الله، هو المبادر قبل أكثر من ٣٥ عاماً إلى المسألة، بالحث على تدقيق معرفة مكان السوق، لأن أمر إحياء السوق في موقعها التاريخي الصحيح، كان شاغلاً باله.

يشير الكاتب إلى أن الشيخ فهد المعطاني شيخ

قبيلة الصلمان من هُذيل، كان مصراً على أن السوق موقعها في وادي نخلة. أما هو فيرى أن النص التاريخي يشير إلى موقع «بين نخلة والطائف». ويستشهد في قول ذلك، أرجوزة عيسى بن أحمد الرداعي، الذي وصف طريق الحج، من صنعاء إلى بيت الله الحرام، وفي الوصف ذكر لمواقع منها: أوقح وكلاخ وجلدان وقُرّان وشِرب والمناقب، وكلها مواقع. كذلك استشهد ياقوتاً الحموي صاحب معجم البلدان، وكتاب سعيد الأفغاني: «أسواق العرب»، والكميت بن زيد الأسدي وغيرهم، وعلى رأسهم الشيخ محمد بن بليهد الذي أمضى ١٤ سنة بين ١٣٥٥ و١٣٦٩هـ، في البحث عن الموقع الصحيح.

وتتوالى المقالات، فيؤيد مناحي ضاوي القثامي عضو نادي الطائف الأدبي، المفرجي، ويعارض رأي المعطاني، لاستناد الأول إلى «الحقائق العلمية». فيرد الشيخ المعطاني بمقالة، ويرى ضرورة أخذ التواتر الشفاهي حجة مع الشعر القديم، ويشك في استقراء المفرجي أرجوزة الرداعي. ثم يذكر أقوالاً للبكري والسيوطي والجوهري صاحب الصحاح واليعقوبي صاحب التاريخ وابن حجر صاحب فتح الباري والأزرقي صاحب تاريخ مكة وابن حبيب صاحب المحبَّر، تؤيد ما ذهب إليه.

ويرد القثامي، فيشك في حجة التواتر الشفاهي

ويتحدى أن يكون في الشــعر الجاهلي والإســلامي الأول، ما يؤكد أن ســوق عُكاظ كانت فــي وادي نخلة. ويشــتد الجدال، مع إسهام جويبر الثبيتي، فيرى في مقالة المعطاني تصحيفاً لموقع الأثيـداء ليصيـر: الأثيبـاء، ولموقـع البوبـاه ليصير: البهيتاء، وتحويلاً لســوق عُكاظ من كونها لهوازن، إلى كونها لقريـش. ثم يدلــي عاتق بــن غيث البــلادي بمقالــة يعارض فيهــا مقالة المعطانــي أيضــاً، فيتحفظ عن الأخــذ بلا حدود بالتواتر الشفاهي، ويؤكد شــواهد يقول إن الشيخ المعطاني تجاهلها، ويأخذ عليه حججاً ليست منطقية في رأيه.

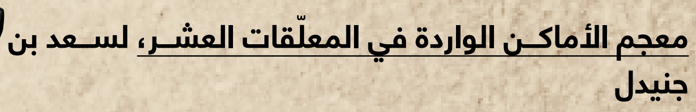
وأمــا «علاّمة الجزيــرة»، المرحــوم حمد الجاســر، فلا يتردد فــي القــول إن وادي نخلة ليس قطعاً موقع ســوق عُكاظ. فالمــكان يجب أن يكون متســعاً لاجتمــاع القبائل. واستشــهد الجاســر بكتاب أبــي عبيــد البكــري: معجم ما اســتعجم، وقصيدة الرداعــي، الســالف ذكرهــا. ومقالته حاشدة بالشعر الذي يدعم قولته.

ويتدخــل في الجــدال باحث من هــوازن، هــو محمد بن ســلطان العتيبي، من قســم الآثــار بجامعة الملك ســعود. فيذكر أصحــاب الفضــل الســابقين الذيــن أثــروا البحث في الموضوع، وهــم: محمد بن بليهــد (صحيح الأخبــار عما في بلاد العرب)، وحمد الجاســر (موقع ســوق عُــكاظ)، وعبد الله بن خميس (المجاز)، وناصر الرشيد (سوق عُكاظ في الجاهلية

والإسلام) وخليل المعيقل. ويستشـهد نصوص حرب الفجار الثانية، ليخلص إلى أن نخلة كانـت لقريش، فيما كانت عُكاظ لهوازن، فلا يجوز أن تكون إحداهما في أرض الأخرى. ويلاحظ العتيبي أن أطلال قصر مشـرفة التي ظنها البعض أنها بقايا السوق عمرها ٢٥٠ سـنة فقط، وليست من العصر الجاهلي. ناهيك بأن السـوق كانت تنتصـب في خيام موسـمية على سهل متسع، ولم تكن لها مبان في موقع معين.

ويختم صاحـب الكتاب كتابـه، بمقالة لـم تصدر في ملحـق جريـدة النـدوة الأدبي، بـل فـي أول أعـداد مجلة الدارة، سـنة ١٤١٥هـ، كاتبها د. خليـل إبراهيـم المعيقل، تؤيد بالمراجع والمصادر مقالة المفرجـي، وتنقض مقالة المعطاني فـي موقع السـوق. ويجعـل المعيقـل موقع السوق «في أرض متسعة يحدها من الجنوب ملتقى وادي شِـرب ووادي الأخيضـر... والعبلاء، تعـرف الآن بالعبيلاء. ومن الغرب جبال الصالح وجبال مدسـوس، ومن الشمال الشـظفا والخلص ومشـرفة، ومن الشـرق الدار السوداء والحَـرَّة أو... صحراء ركبـة». ويجعل اتسـاعها ٤ كيلومترات مـن الجنوب إلـى الشـمال، وكيلومتريـن من الغـرب إلى الشرق.

إنه كتاب مفيد في وضع الخطوط العريضة للسـجال الذي انتهى إلى تعيين موقع السوق التاريخي.



معجم الأماكـن الواردة في المعلّقات العشـر، لسـعد بن جنيدل

صدر عن مركز حمد الجاسـر الثقافي في الرياض، سـنة ١٤٢٥هـ. وهو مفيد جداً من حيث منهجه، إذ يلحظ في مقدمة الكتاب، أن الاسـم الجغرافي قد يكون لمسميَين أو أكثر، وأن أسـماء المواضع تتبدل مع الزمن، أو تتحوّر أو تـزول. ولذا نبّه إلى ضرورة سـعي المدققين الباحثين عن موقع جاء ذكره في النصوص القديمة، في استشهاد الروايات المختلفة للمقارنة والتمحيص، وعدم الاكتفاء بمستند وحيد.

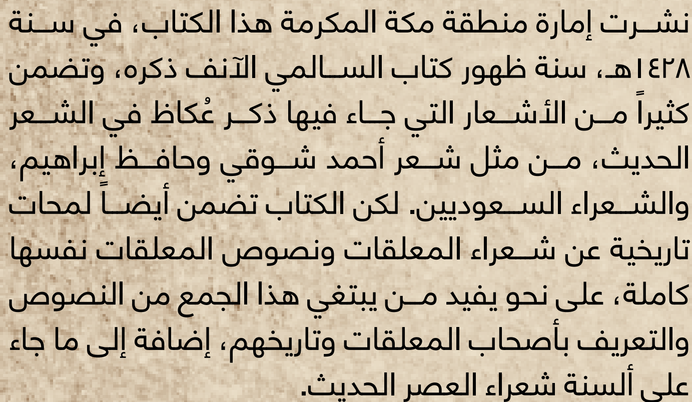
لكننا لـم نعثر على شـيء من أسـماء مواقع سـوق عُكاظ الأساسـية، مثل: الأثيداء أو جبل الحضن أو العبيلاء أو الخَلَـص فـي هـذا المعجـم الممتـاز. وليس هـذا عيباً في الكتـاب، فقـد لا يكون لـكل هـذه المواقـع ذكر في المعلقات. غير أن منهج الكتاب سـليم فـي تنبيه الباحثين عن موقع السوق، أو أي موقع آخر مذكور في نص قديم.



ديوان عُكاظ، لحمّاد بن حامد السالمي.

ظهر هذا الكتاب المهم في سـنة ١٤٢٨هـ، السـنة نفسـها التي أحيت فيهـا المملكة سـوق عُكاظ وأنشـأت جائزتها، بعد مضي ١٢٩٩ سـنة هجرية على إقلاع العرب عنها. وهو لا يُستغنى عنه إذا شـئنا إجمال ما قيل شـعراً في التفاخر

بعُـكاظ ومكانتهـا الرمزيـة منبـراً للشـعر ديـوان العرب، والتأسـي على هجر السـوق وما تفعله من اجتماع العرب فيها. وتضمن الكتاب كذلك شـيئاً مما قيل من شـعر في السـوق بعد إحيائها. لكـن عرض أجمل ما قيل من الشـعر في عُكاظ، جاء بيانه في فصل آخر.



<u>سـوق عُكاظ من ذاكـرة التاريخ إلـى بهجة الحيـاة</u>، د. هند صالح با غفار



نشـرت إمارة منطقة مكة المكرمة هذا الكتاب، في سـنة ١٤٢٨هـ، سنة ظهور كتاب السـالمي الآنف ذكره، وتضمن كثيراً مـن الأشـعار التي جـاء فيها ذكـر عُكاظ في الشـعر الحديث، مـن مثل شـعر أحمد شـوقي وحافـظ إبراهيم، والشـعراء السـعوديين. لكن الكتاب تضمن أيضـاً لمحات تاريخية عن شـعراء المعلقات ونصوص المعلقات نفسها كاملة، على نحو يفيد مـن يبتغي هذا الجمع من النصوص والتعريف بأصحاب المعلقات وتاريخهم، إضافة إلى ما جاء على ألسنة شعراء العصر الحديث.

ويتضمن الكتاب كذلك قصة المسـعى الرسمي في إحياء السـوق، وأسـماء المسـؤولين وأعضاء اللجان التي عملت في هذا الجهد، لتعـود الحياة إلى عُكاظ، في سـنة ١٤٢٨هـ، بعد ١٢٩٩ عاماً هجرياً.

سوق عُكاظ الرمز والتاريخ، مناحي ضاوي القثامي

صدر سنة ١٤٢٨هـ. وقدم له الدكتور جريدي المنصوري الثبيتي، أمين مؤسسة سوق عُكاظ العام، فاستغرب ظاهرة ضياع المواقع، ومنها موقع السوق واحتدام الجدل فيه. وسمى هذا الضياع: هجرة الأمكنة. وأعلن اغتباطه لعودة الحياة إلى السوق في موضعها التاريخي.

يتناول الكاتب موقع السوق، فيعرض الجدال فيه، ثم تاريخ بدء السوق ويؤيد الرأي القائل إنه أول القرن الميلادي السادس. وفي فصل ثالث يعرض الكتاب مجالات السوق وما كان يجري فيها، من أدب وتجارة وعقود بيع وشراء وتعارف وتفاخر وسماع خطب وحكم. ويقول: "كان سوق عُكاظ يحتوي على كل نواحي النشاط الإنساني في الجزيرة العربية اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وثقافياً ودينياً، وكذلك من خارج جزيرة العرب".

وفي فصل طويل يرى الكاتب أن السوق مهدت لظهور الإسلام بتوحيد لهجات اللغة، والدعوة فيها، ونشر العادات السليمة، وأن النبي صلى الله عليه وسلّم طاف بأسواق العرب ليبلّغ رسالة الإسلام، ثم روى الكاتب في هذا شيئاً من السيرة النبوية، ومنها إشادته صلى الله عليه وسلّم، بقس بن ساعدة. كذلك روى بكائيات هند بنت عتبة على قتلى قريش في بدر.

وفي الفصل الســادس، تناول الكاتب عُكاظ والشعر، ثم في الفصل السابع المواقع المجاورة لعُكاظ.

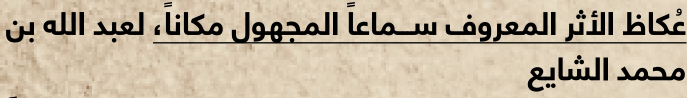


عُكاظ وحي الإبداع وتجليات الوعي، لعالي سرحان القرشي وعاطف السيد بهجات

يتمم هذا الكتاب رباعية الكتب التي صدرت في ســنة إحياء الســوق، ١٤٢٨هـ. وجميعها، إلا كتاب باغفــار، صدرت عن نادي الطائــف الأدبي الثقافــي، وكَتَبَ لها مقدَّمــاً، رئيسُ النادي آنذاك، الدكتور المنصوري.

ومع ان الكتاب فــي فصلين فقط، إلا أنــه مفيد في التعمــق بمعاني الســوق ومــا كان فيها من نشــاط. فهو يعرّج علــى الدلالة الرمزية فيها، لا ســيما فــي كونها مهد هوية ثقافيــة عربية. ويتنــاول الحرب والإقبــال عليها وكره الذهاب إليهــا، ثم فضائل الاحتشــاد والتجمع، ومحاســن الفخر والمــدح، وما أحدثــه الإقلاع عن إقامة الســوق من وهن فــي اجتمــاع الأمة. وعــرض نتفــاً من أفضــل النقد الأدبي الذي كان يرتقي من جراء التباري في الشعر.





عُكاظ الأثر المعروف ســماعاً المجهول مكاناً، لعبد الله بن محمد الشايع

سبق كل هذه الكتب، إذ صدر سنة ١٤١٦هـ. وهو غزير مادةً

وممتاز تنسـيقاً وتبويباً، وينتهي إلــى أربعة فهارس مفيدة جداً: محتويـات الكتاب، والمصـادر والمراجـع، والأماكن، والخرائـط والمناظر. ويُلمّـح كاتبه في مدخـل البحث، إلى أنه كتبه تحت وطأة اختلاف الـرأي الذي بدا له في مقالات صحافية، عن موقع السـوق. وكانت المقـالات بدأت في الظهور في السنة السـابقة، ١٤١٥هـ، ولذا خصص الكتاب للحسم في هذا الأمر، لا غير.

ولذا قسم الآراء في مكان الموقع إلى ثلاثة، ومحّص فيها على نحو علمي دقيـق. فبذل صفحات فـي كل رأي. وهو يشرح أحد أهم أسـباب الالتباس في فهم النصوص الجغرافية التي جاء بها القدماء، وهو أن المفسـرين خلطوا بين قرية عُـكاظ «ذات المبانـي والنخيل»، وبين السـوق، وهي في سـهل رحب. وقد انحاز الكاتب إلـى آراء محمد بن بليهد وحمد الجاسـر، ونقض نقد ناصر الرشـيد لهما، في كتابه: «سـوق عُكاظ في الجاهلية والإسلام». وبدا الشايع في تمحيصـه كل رأي كمـن يقلب كل حجـر يصادفه ليرى ما تحته. ولم يكتـفِ بالآراء، بل زار المواقع وسـأل الناس، واسـتطلع واستشـرف واسـتقصى على المـكان. بل انه سـار الرحلة التي وصفها الرداعي فـي أرجوزته، ليقف على المسـافة والمواقع الموصوفة فيها، على طريق الحج من صنعاء.

وبنتيجة تفريقه في النصوص بين قرية عُكاظ وسوق عُكاظ انتهى إلى حدود السوق وفق ما يلي:

من الجنوب أكمة العبلاء.

من الغرب صخور الأثيداء.

من الشـمال والشـمال الغربـي وادي الأُخَيضِر وعين خلص.

من الشرق الحُرَيرة.

وتأكيداً لمنهجـه العلمي الدقيق، خـص الكاتب قرية عُـكاظ بفصـل، لأنها سـبب الالتبـاس في تعييـن موقع السـوق، ثم الطائف القديمة بفصل آخـر لتعيين موقعها. وبذل جهداً في ذلـك مثلما بذل في تعيين موقع السـوق نفسها، من تدقيق نصوص ومعاينة أماكن.



المعجم الأثري لمحافظة الطائف، لناصر بن علي الحارثي

الناشـر: لجنـة المطبوعات في التنشـيط السـياحي، محافظة الطائف. صدرت الطبعة سنة ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

يفيد الكتاب، وهو كما يبين عنوانه دليل للآثار الباقية فـي محافظـة الطائـف، الباحثيـن الأثرييـن فـي مناطق شهدت الكثير من المشاهد الإسلامية الباكرة، والحوادث السـابقة للإسـلام أيضا. وهو إذن ليس مخصصاً لعكاظ، ولا لسـوقها. ويـرد ذكـر عكاظ فـي خمس مـن صفحات

الكتاب وهي ١٤٦ صفحة.

ص ١٧: الأُثَيداء صخور على شـكل ثدي، شمال شرق الحوية في الموضع الـذي اختير أخيراً، ليكون مقراً لسـوق عكاظ، بجوارها صخور عليها نقوش إسلامية مبكرة، تحمل أسـماء أشـخاص احتموا في ظل هـذه الصخور فـي أثناء سفرهم في المنطقة.

ص ٦٩: سـوق عـكاظ، أشـهر أسـواق العـرب فـي الجاهلية وصدر الإسلام، اختلف الباحثون قدماء ومحدثين فـي تعيين موضعهـا، وتعـددت الآراء حول ذلـك، فقيل: شـرق الحوية، وقيل: في السـيل الكبير، وقيل: في جنوب الطائـف، وقيل: في عشـيرة، وقيـل غير ذلـك، ثم عينت موضعه لجنة أنشـئت لهذا الغرض أخيراُ، فجعلته شـمال شـرق الحوية، ولا يزال موضعـاً للخلاف. دمرتـه الحرورية عام ١٢٩م، ومنذ ذلك الحين لم تقم السوق التي لم يكتف العرب فيها بالبيع والشراء، بل كانت منتدى العرب الأدبي.

ص ٧١: خريطـة سـوق عـكاظ، وفيهـا شـكل شـبه مسـتطيل، يمتد من الجنوب إلى الشـمال نحو ٣٥٠٠ متر، ومن الشرق إلى الغرب، نحو ٢٥٠٠ متر. تحدها من الشمال الحريرة، ومزرعـة الملك خالد بـن عبد العزيـز، يرحمه الله، ومن الجنوب العبـلاء وقرية صلبة وقرى عـدوان. وأما من الشـرق فأرض فضاء، ومن الغرب شـعيب الأخيضر. وفي

خريطة مصغرة، يبدو موقع السوق إلى الشرق من الطريق بين الطائف والحوية، المتجهة إلى الرياض. والسـوق على مسافة ١١ كيلومتراً شرق الطريق، من المخرج ٥٦.

ص ٧٢: عـن قرية شـويحط، وهـي قريـة مندثرة في أسـفل وادي جليل، غـرب جبل قـرن بني حسـن، وقد ورد ذكرها فـي الكتـب الحديثـة، بهذا الاسـم، علـى أنها في الأرجح، كانت هي سوق عكاظ، وهذا غير صحيح.

ص ١٠٩: متحـف عـكاظ للتـراث الشـعبي، متحـف أنشأه خلف الله القرشـي في منزله في الطائف، وعلاقته بالسوق اتخاذه اسمه منها، وحسب.

المعجـم الجغرافـي لمحافظة الطائـف، لحمّاد بـن حامد السالمي.



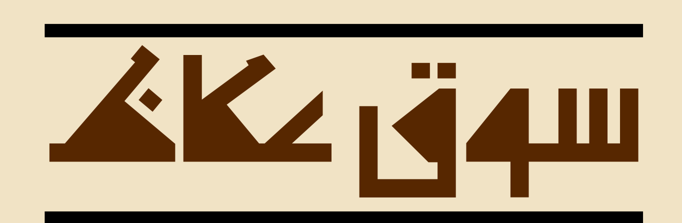
مجموعة من ثلاثة مجلدات، وضعها السالمي، رئيس نادي الطائف الأدبي والثقافي، واضع كتاب: ديوان عُكاظ. وهو سـفر ممتاز لمن يريد معرفـة الأماكن والمواقـع والجبال والوديان والسهول والقرى، لكنه يعرّف أيضاً بالمؤسسات الثقافية والنوادي، فلا يترك لسـائل عـن منطقة الطائف سؤالاً بغير جواب.

ومن يرد معرفة للأماكن فـي منطقة عُكاظ، يجد فيه ما يفيد، حتى في الشوارع وأسمائها.

ويُذكر للسـالمي أنه والدكتور جريـدي المنصوري من المسهمين في إحياء سوق عكاظ في الثقافة والنشر، في مرحلة إحياء مهرجان السوق.

وقـد اعتنـى السـالمي فـي عملـه رئيسـاً للجنـة المطبوعات في التنشـيط السـياحي بمحافظـة الطائف، ورئيسـاً للنادي الأدبـي الثقافي فـي الطائف، لنشـر عدد من الكتب، تتناول محافظة الطائـف والتعريف بمواقعها ومعالمها الثقافية والسياحية والأثرية.





174

إنهـا عنقاء الجزيرة العربيــة، ذلك الطائر الذي قام من رماده ليَبعث مجداً تليداً صنعه التقاء العرب في مواسمهم، لعل هذا الدم الجديد الذي أحيا السوق، بشِعرها ومواسمها والتقــاء الأحبة فيها، يُلهم الناس إلى طريق الغد المشــرق بإذن الله، مثلما أراد أصحاب الإحياء، باعثو سوق عُكاظ.

قصة الســوق إذن، مثلمــا تروي لنا كتــب الأقدمين والمحدثين من كُتّاب العرب والإسلام، وكبار الباحثين اليوم في المملكة، وشــعرائهم علــى مختلف الحقب والعصور، هي قصة تتخطى حدود المنتدى والمنبر، فالســوق أعظم مــن هاتيــن المهمتين الجليلتيــن، في أنهــا ملتقى عيش مشــترك، وَحَّد القلــوب، وألّف العقــول، وجمع المصالح والمشــاعر معاً، بل انها ملتقى المشــروع الواحد، الواعد، الواقــد للشــعلة والمنــارة. إنها فكــرة تبدو فــي حقيقتها بعــد التدقيق، أكبر مما قد يظن صاحب النظرة الســريعة، لأن عبقريــة الاجتمــاع في الســوق تنطوي في بســاطتها وضرورتها على معانٍ كبيرة.

نعم، ســوق عُكاظ، مهرجان لسماع الشعر والاحتفال وفرح اللقاء.

لكن ســوق عُكاظ كانت ضرورة للعرب في ماضيهم، وهي ضرورة ليومهم ولغدهم.

بهذه النظرة كان إحياء السوق، وبهذا الطموح ستعود لنا سوق عُكاظ كل عام، بإذن الله.


سوق
عكاظ